وزارة التـعليم العـالي والبـحث العـلـمي

جامعة محمد الصديق بن يحبى

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة

فن السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر

«حياتي» لأبي القاسم سعد الله أنموذجاً

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي

تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالبة:

- مروة محداب

إشراف الدكتور:

- نور الدين سعيداني

لجنة المناقشة

عبد العزيز شويط	أستاذ التعليم العالي	جامعة جيجل	رئيساً
نور الدين سعيداني	أستاذ محاضر –أ–	جامعة جيجل	مشرفاً ومقررًا
صلاح الدين باوية	أستاذ محاضر –أ–	جامعة جيجل	ممتحناً

السنة الجامعية 2023/2022

الموافق لـ1443هـ/1444

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربي أوزعني أن أشكر نعمتك الَّتي
أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل
صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في
عبادك الصالحين»

سورة النمل، الآية 19

شكر وتقدير

اللهم لك الحمد ولك الشكر وإليك يرجع الفضل كله.

أتقدم بالشكر مقرونا بالعرفان والتقدير إلى الأستاذ المشرف على هذه المذكرة: "نور الدين سعيداني" الذي لم يبخل عليَّ بالنصح والإرشاد والتوجيه وتقديم ملاحظات بناءة.

كما أسجل شكري إلى كل من ساعدني وساهم في إنجاز هذا البحث من قريب أو بعيد، ولو بكلمة طيبة أو مشورة

إهداء

إلى أروع عائلة في العالم، أهدي هذه المذكرة كتعبير عن حبي وامتناني العميق لكم، لقد كنتم دعماً لا يضاهى ومصدر إلهام لي في كل خطوة أخطوها في حياتي.

لأبي وأمي الحنونين، اللذين أعطياني الحب والقوة والتوجيه. لقد كنتما قائدين ومعلمين رائعين.

إلى إخوتي وأخواتي،الاذين شاركوني الأيام السعيدة واللحظات الثمينة والذكريات الجميلة، لقد جعلتم حياتي مليئة بالضحك والسرور، ولم أكن يوماً وحيدة بوجودكم، أشكركم على التضحيات والدعم المستمر.

أهدي هذه المذكرة لكم تعبيرًا عن حبي وامتناني العميق لكم جميعاً، أنتم الروح التي تعطيني الحياة، أنتم مصدر إلهامي وقوتي ودعمي.

مقدمة

مقدمة:

إذا نظرنا إلى المقومات الكبرى التي يتأسّس عليها فنّ السّيرة الذاتية تبين لنا أن هذا الفنّ ليس غريبا على التّراث العربيّ، بل إنّ أمّةً لم يبلغ هذا الفنّ عندها من الكثرة ما بلغه في تراثنا، على أنّ تعدّد أشكال السّيرة في أدبنا الحديث والمعاصر يدلّ من جهة على الاطلاع على السّنن الإبداعية التي خلّفها أسلافنا في هذا المجال والتي ما برحت تتطور، كما يدلّ على تأثر أدبائنا بالتجارب السّيرية الغربية من جهة أخرى.

لقد أضحى فنّ السيرة الذاتية في عصرنا جنسا أدبيّا يزاحم الأجناس الأخرى وفرةً وتنوّعا في احتفائه بالذات، ومحاولته إقامة علاقة مع المتلقي. والحق أن الأدب الجزائري لم يشهد هذا الفن مبّكرا بالقياس إلى المشرق بسبب العثرات التي واجهت الحركة الأدبيّة في الجزائر في بدايتها، وقد حاول أدباؤنا الخوض في هذا الفنّ فظهرت سير ترتقي عن مجرد التّوثيق لحياة شخص ما لتصبح فنا أدبيّا يتيح لأصحابه وصفَ مسارهم الأدبيّ وتأثيرهم على الثقافة والمجتمع، والتعبيرَ عن أنفسهم وعن تجاربهم الشّخصية بأسلوب فنيّ بديع، ينبئ عن عصر بكامله محمّلٍ بالحقائق النفسية والتاريخية والثقافية، ومن الأدباء الذين دوّنوا سيرهم نجد: عبد المالك مرتاض، وزهور ونيسي، وواسيني الأعرج، وعياش يحياوي، وسعدي صباح وغيرهم.

أمّا هذه الدراسة فتنصرف إلى سيرة شيخ المؤرخين الجزائريين أبي القاسم سعد الله، وقد جاءت موسومة بعنوان: "فن السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر "حياتي" لأبي القاسم سعد الله أنموذجاً"، وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع ميلي إلى فنّ السيرة الذاتية المحبّب إلى النّفوس بوصفها محكيا حميميّا يخلق المعايشة الوجدانية، بالإضافة إلى إعجابي بشخصية أبي القاسم سعد الله هذا الرجل الموسوعي الذي خلّف للثقافة العربيّة والجزائرية خاصة إرثًا معرفيّا متفرّدا لا يمكن بأي حال تجاوزه مما جعله دائم الحضور، فقد أفنى حياته مخلصا لمشروعه العلميّ والأدبيّ، وكان أحد الشّعراء السباقين إلى قصيدة التّفعلية، كما كان ناقدا متمرّسا، ومحقّقا فذّا، ومؤرخا موثوقا، ومترجما متمكّنا، كما أنّ سيرته تعبّر عن حياة شخص وملامح عصر في آن واحد؛ لأنه عاصر فترات تاريخيّة كثيفة الأهميّة في تاريخ الجزائر، ثم إن سيرة أبي القاسم –في حدود ما توصلتُ إليه– لم تنل حظها من الدراسة التي تبين جمالياتها ومكامن الإبداع فيها.

يسعى هذا البحث للإجابة عن الإشكالية التالية:

- فيمَ تتمثل تقنيات السيرة الذاتية ومواصفاتها الجمالية عند أبي القاسم سعد الله؟ وكيف جسدت سيرة "حياتي" تحولات الأنا وتقلبات المكان وتفاعلات الزمان والشّخصيات ؟

ولقد اقتضت مني طبيعة الموضوع أن أقسمه إلى مدخل وفصلين وخاتمة، فقد تضمن المدخل مفاهيم نظرية في السيرة الذاتية، أما الفصل الأول فقد جاء بعنوان: السيرة الذاتية وأشكالها في الأدب العربي الحديث والمعاصر، وقد تطرقت فيه إلى السيرة الذاتية في الأدب العربي المعاصر، وأهم الأشكال التي السيرية، بالإضافة إلى إرهاصات هذا الفن في الأدب الجزائري.

وأما الفصل الثاني، فقد خصصته لدراسة تطبيقية في سيرة أبي القاسم سعد الله، فوقفت فيه على الميثاق السير ذاتي، كما تعرضت للتطابق بين المؤلف والسارد وبطل السيرة، ثم ألممت بدراسة الشخصيات وتحليل العنوان ،كما بيّنتُ حدود الصدق والموضوعية في هذه السيرة، وجلوتُ صورة المجتمع الجزائري في مرآة أبي القاسم سعد الله وخلصت إلى دراسة المكان والزمان. أما الخاتمة فقد أودعتها النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

وقد استعنت في بحثي هذا ببعض المصادر والمراجع لإثراء الموضوع وتدعيمه، أذكر منها:

- كتاب "حياتي" مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله.
- فن السيرة الذاتية "لإحسان عباس"
- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث "ليحيى إبراهيم الدايم"
- الترجمة الشخصية "لشوقي ضيف".

أما المنهج المتّبع في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليليّ، إذ ركزت على الأشكال والظواهر التي امتاز بها النّص السير ذاتي، ثمّ قمت بتحليلها ودراستها في ضوء المعطيات التي أحاطت بالنصّ وبالكاتب على حد سواء، كما تمت الاستعانة بالمنهج التاريخي عند الحديث عن أوليات هذا الفنّ وتتبع مسيرته.

والحقّ أنّ هنالك جملةً من الصعوبات التي واجهت هذه الدراسة، ولعلّ من جملتها ندرةُ المراجع التي تتناول فنّ السيّرة في الأدب الجزائري، وانعدام الدراسات التي تعرض لسيرة أبي القاسم سعد الله.

آمل أن أكون قد قاربت ما ابتغيت من وراء هذه الدراسة، وأن أكون قد استطعت الإلمام بهذا اللون الأدبي الجديد والتأصيل له، وإفادة متلقي هذا البحث ببعض الجوانب من سيرة "أبي القاسم سعد الله" وماتضمنته.

ولا يفوتني في الأخير أن أتقدم بالشّكر الجزيل إلى د." نور الدين سعيداني " الذي أشرف على هذا العمل وأعانني بتوجيهاته السديدة حتى استطعت أن أخرج هذا البحث في صورته الحالية، كما أشكر كلّ من قدّم لي يد العون، والله الموفق للصواب.

مدخل: مفاهيم نظرية في

السيرة الذاتية

مدخل: مفاهيم نظرية في السيرة الذاتية.

مر النثر العربي خلال تطوره بمراحل مختلفة وكان الأدب العربي يشكل مجالاً للعديد من الأجناس الأدبية التي ظهرت في العصر الحاضر واستكملت عناصرها الفنية كالرواية والمسرح وغيرها، على أن مايهمنا في هذا المقام هو جنس السيرة، لذلك سنستهل حديثنا عن هذا الجنس الأدبي بمعرفة أهم مفاهيمه.

- **أولاً: مفهوم السيرة عند العرب:**

1- من الناحية اللغوية:

للسيرة العديد من المفاهيم في المعاجم العربية حيث نجد في لسان العرب لابن منظور:

السِّيرَةُ: الضرب من السَيْرِ والسُّيَرَةُ الكثيرُ السَّيرِ والسِّيرَةُ: السنة، وقد سَارَتْ وسِرْتُها، قال خالد بن زهير:

فَلاَ تَجْزَعَنَ مِنْ سُنَةٍ أنتَ سِرْتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنّةٌ من يسِيرُها

والسِّيرةُ: الطَّرِيقَةُ، يُقالُ: سَارَ بهم سيرَةً حَسَنَةً، والسَّيرةُ الهَيْئَةُ. وفي التنزيل العزيز: (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى).

وَسَيَّرَ سيرَة: حَدَّثَ أحاديث الأوائل وسار الكلام والمِثَلُ في النَّاس: شَاعَ. [1]

وفي قاموس المحيط فيذكر:

«السّيرَة: الضرب من السَّيْرِ. وكهُمَزَة الكثير السَيْرِ والسِّيرَةُ بالكسر: السُّنةُ [الطريقةُ، والهيئةُ والميزَةُ]» [2]

أما في المعجم الوسيط:

«السِّيرَةُ: السُنَةُ والطريقةُ والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره والسيرةُالنبويةُ وكُتبُ السِّير مأخوذة من السِّيرة بمعنى الطريقة وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك ويُقال قرأتُ سيرة فلان: تاريخ حياته (ج) سِيَرٌ» [3]

وعليه نخلص إلى أن مفهوم السيرة في اللغة متعدد وغني وهي في العموم تأتي بمعنى: سنة، هيئة، مذهب، طريقة أو سلوك.

---

[1] ينظر، ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ط1، مادة (سير)، ص2169، 2170.

[2] الفيروز آبادي: قاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، مادة (سير)، ص437.

[3] المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2005، باب السين ، ص467.

2- بين الترجمة والسيرة:

قبل الحديث والتطرق إلى المفهوم الاصطلاحي للسيرة لابد لنا من توضيح الإشكال القائم بين هذين المصطلحين فكلامهما نوع أدبي واحد فكلمة ترجمة دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة الآرامية، ولم يتم استخدام هذا المصطلح إلا أوائل القرن السابع هجري حين استخدمها ياقوت الحموي في معجمه بمعنى "حياة شخص"، ثم جرى الاصطلاح على استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد. وكلمة "سيرة" يصطلح استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياة. وعمومًا فإن القدماء لم يفرقوا في الاستعمال بين اللفظتين، والاصطلاح الحديث لايفرق بينهما كثيرًا، بل يستخدم إحداهما مرادفةً للأخرى، ومن ثم جاء الاصطلاح المعاصر: "الترجمة أو السيرة الذاتية".[1]

وهذه أهم الفروق ونقاط الاختلاف بين المصطلحين:

_ السيرة أقدم استعمالا في التراث العربي من كلمة ترجمة من حيث مدلولها في تتبع حياة شخص وأحواله.

_ الترجمة كلمة مولدة (أي أنها استعملت بعد عصر الرواية) إذ كانت تستخدم للدلالة على التأريخ لحياة شخص.

_ يستخدم مصطلح الترجمة حين لا يطول نفس الكاتب، أما إذا طال نفسه واتسعت الترجمة نقول عنها إنها سيرة.[2] إذن فالسيرة أكبر حجمًا وأطول من الترجمة.

3- _من الناحية الاصطلاحية:

نجد أن هناك التباسات عديدة وشائكة في ظبط مفهوم دقيق ومحدد لهذا الجنس الأدبي، وقد كان هذا الالتباس محل نقاش للعديد من الباحثين الذين حاولوا وضع تعاريف تُوافق مفهومهم الخاص للسيرة وبتعدد الباحثين وبعمق المصطلح ظهرت عدة تعريفات، فنجد عبد العزيز شرف يعرفها بقوله: «السيرة الذاتية تعني حرفيًا ترجمة حياة

---

[1] ينظر: يحيى إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، ص31.

[2] ينظر: أحمد بن علي آل مريع، السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، تق محمد القاضي، صامد للنشر والتوزيع، القيروان، تونس، ط3، 2010 ص25،28.

إنسان كما يراها هو، فتحاول التعبير عن نشاطات ذهنية وعملية قام بها الإنسان في حياته مما يجعلها بتعبير آخر عبارة عن قصة حياة » [1]

ويعرف عبد الله الدايم مصطلح السيرة الذاتية بقوله: «والترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والإتساق في البناء والروح كما سلف وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيًا كاملاً عن تاريخه الشخصي على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الشخصية» [2] وقد أردف تعريفه للسيرة بمجموعة من الشروط والعناصر الأدبية الأساسية التي يجب أن يتحلى بها الكاتب ويتصف بها عند كتابته لسيرة ذاتية نذكرها في شكل موجز ومختصر كالتالي: "جمال العرض، حسن التقسيم، عذوبة العبارة، حلاوة النص الأدبي، بث الحياة والحركة في الأحداث، استعمال القليل من الخيال، استخدام اللفظ المناسب." [3]

أمَّا إحسان عباس فيعرفها بقوله: «هي تجربةٌ ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس صاحبها نوعًا من القلق الفني فإنَّه لابد أن يكتبها» [4] ونستنج من هذا القول أنّ الكتابة السيرية هي نتاج تمرس وخبرة شخصية عاشها الفرد (الكاتب) ولما تبلغ هذه الصورة إدراكها النفسي والعقلي الكامل، يصورها صاحبها في شكل فني أدبي بما يعرف اصطلاحًا بالسيرة الذاتية.

كما يمكننا القول بأنَّ السيرة هي «بحث في كُنهْ الذات واستخلاص ثوابتها تقويمًا وتأويلاً للتجربة الذاتية مثلما تستدعي تقويمًا وتأويلاً للتجارب التي من شأنها أن تنزل معرفة الذات في المعرفة بالعالم الذي يستوعبها، ولكنّه في نفس الوقت لا يحجبها تمامًا لأنَّ العلاقة بين الذات المستقرأة ومحيطها الاجتماعي هي علاقة بالأساس علاقة انفعال وتفاعل، فما نسميه حقيقة سير ذاتية، هو في الواقع تلك الرؤية التأويلية التي يجتهد كل مترجم لذاته من خلال اجلائها في اختزال العالمين الذاتي والبشري الخارجي وتقويمها انطلاقا من موقعه التاريخي الخاص وهو موقع متعدد الوجوه ويشمل كفاءات معرفية وثقافية واتجاهات إيديولوجية وحساسيات انفعالية شعورية وفكرية إدراكية»[5].

---

[1] ينظر: عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الجيزة، مصر، 1995، د.ط، ص10.

[2] يحيى إبراهيم الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص10

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص10.

[4] إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص95.

[5] جليلة طريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، مؤسسة سعيدان للنشر والتوزيع، 2004، ص507.

ويعرفها محمد عبد الغني حسن بقوله: «التراجم هي ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل...تعريف يطول أويقصر ويتعمق أو يبدو على السطح تبعًا لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة وتبعًا لثقافة المترجم أي صاحب الترجمة ومدى قدرته على رسم صورة كلية واضحة ودقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه »[1].

أي إنّ السير والتراجم تعرِّف بحياة صاحبها، أما الطول والقصر (في الكتابة) فيرجع لصاحبها، كونه هو الوحيد القادر على ذكر التفاصيل أو تجنبها وهذا إن دل على شيء إنّما يدل على ثقافته وقدرته في الكتابة ومدى صدقه وصراحته.

وفي نفس الصدد نجد تعريفًا آخر للسيرة يقول: «هي نوعٌ أدبي يكون فيه ملتقى الحق الفني بالحق التاريخي ويراد بها درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته»[2] ومن خلال هذا المفهوم نتوصل إلى نقطتين مهمتين:

-الأولى: أن السيرة مزيج من الواقع والتاريخ والفن.

-الثانية: أن الهدف المرجو من خلال رسم الكاتب لشخصيته هو أخذ العبرة والفائدة من تجاربه.

وهناك من عرف السيرة الذاتية على أنّها: «فعل لغوي نثري استعادي يقوم به كاتب واقعي ويركز فيه على وجوده وشخصيته وحياته الخاصة بشكل مباشر أو غير مباشر، متوخياً خطاً زمانياً ممتدًا بين مرحلتين متباعدتين يقع بينهما اغلب حياته، وفي الغالب يكون طرفاه مرحلة الطفولة في البداية ووقتاً يسبق أو يزامن مرحلة الكتابة في النهاية»[3].

إذن فالسيرة تندرج ضمن الفنون النثرية الواقعية، كونها تعالج موضوعاً واقعياً ألا وهو قصة حياة صاحبها وحياته الخاصة سواء بطريقة صريحة أو بالإشارة إلى ذلك. وتسير أحداث السيرة في خط زمني واضح ويمكن أن نجعل المخطط الآتي شرحًا للمرحلة الزمنية التي تسير وفقها الأحداث:

---

(1) شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص14.

(2) أحمد آل مريع: السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، ص24.

(3) بهيجة مصري إدلبي: السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010، ص38.

ونضيف تعريفًا آخر للسيرة حتى يتضح الأمر أكثر، فالسيرة إذن: «ترسيخ إيجابيّ لوجود إيجابيّ أي لوجود فاعل وفعّال قابل لأن يتشكل في تجربة مفيدة صالحة تختزل تاريخية الفرد ةترتقي إلى مرتبة العلامة الدّالة على ممارسته لحياة إيجابية منفتحة على العالم»[1].

ومن زاوية أخرى وعلى الرغم من التعريفات المتعددة يبقى من الصعب الوصول إلى تعريف جامع مانع للسيرة «ومرجع ذلك طبيعة هذا النوع الأدبي الذي ينفر من التجنيس، وفيها يعرض المؤلف (صاحب السيرة) لحياته الواقعية، في أسلوب أدبي أو علمي متأدب، وفي أشكال فنية متعددة قد يتخذ الشكل الروائي أو الشكل المقالي أو الاعترافات، أو المذكرات...الخ كل ذلك في نسق متآلف فيعرض لمراحل حياته المتعاقبة وتطوره الفكري والروحي والعقبات التي واجهته» [2]

ومن هذا التعريف نستنتج أنّه لايمكننا تحديد مفهوم محدد أو بالأحرى تصنيف السيرة كجنس أدبي، كونّها تتداخل مع الأجناس الأخرى وكون المؤلف يعرض حياته بالأسلوب والشكل الفني الذي يريده.

وفي نفس الصدد نجد أنّ «صعوبة الوصول إلى مفهوم نهائي من أجل تعريف السيرة الذاتية إنّما ينطلق من قلق تقاليد هذا الجنس وعدم استقرارها. كما هو الحال في باقي الأجناس الأدبية وهذا الأمر هو ماجعل التعريفات

[1] جليلة طريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص508.

[2] شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، ص13.

والمفاهيم تتشعب حول مفهوم السيرة الذاتية بحكم أنّها نشاط إبداعي ليس من السهل القيام به لأنّه أكبر تَحد يواجهه مؤلف السيرة الذاتية هو كيفية الإحاطة بذاته كتابة على الرغم من الإتصال الوثيق بها»[1].

وتأسيساً على المفاهيم السيرية السابقة وعلى الرغم من صعوبة ظبط مفهوم اصطلاحي شَامل كامل ووافي إلاَّ أنَ الملاحظَ في جُلِّ هذه التعريفات أنَّها تتلاقى وتتفق على أنَ السيرة الذاتية عمل أدبي يقوم بتأليفه صاحبه فيكتب عن نفسه بنفسه، فيسجل حياته وأهم مجرياتها وحوادثه وأخباره ويذكر أيام طفولته، شبابه، كهولته، وأهم الأحداث التي يطول أو يقصر ذكرها تبعاً لأهميتها لديه، على أن يجعل في قراءتها متعةً وفائدةً يخرج منها القارئ مما تحمله من أفكار وكشف لحقائق النفس، وهذا العمل السيري يتةفر فيه روعة التعبير الأدبي وجودة الصياغة الفنية والتناسق بين أطرافهِ في رابطةٍ فنية محكمة مع اختلاف التشكيل الفني من كاتب لآخر.

- **ثانياً:تعريف السيرة عند الغرب:**

1- التعريف اللغوي:

إنّ أغلب الدراسات الغربية اللغوية تذهب إلى أن كلمة "biography": ذات أصل يوناني فبتفكيك الكلمة إلى شطرين نجد أنّ:

- "Bios": تعني حياة
- "Graphy": تدل على الفعل يصف.

إذن فالكلمتان معاً تعنيان "وصف حياة"، وقد ذهبت الموسوعة الأمريكية في وضع تعريف موجز لهذا المصطلح بقولها "إنّ السيرة حياة إنسان"[2].

وجاء في كتاب "L'autobiographie"

Le mot « autobiographie» apparait en France vers 1850 comme un synonyme de terme «mémoires » et qui va souvent se substituer lui, il

[1] بهيجة مصري إدلبي، عامر الدبك، السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي، ص31.

[2] ينظر عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، ص03.

S'agit (graphie): sa vie bios= soi même (auto) [1]

الترجمة:

لقد ظهر مصطلح السيرة الذاتية في فرنسا حوالي سنة 1850، كمرادف لمصطلح "مذكرات" والتي تأتس غالباً بمعنى سير حياة=الذات

و من مرادفات هذا المصطلح مانجده في:Dictionnaire général, linguistique technique et scientifique:

Biographe: n.m =كتاب حياة مشاهير الرجال

Autobiographie n.f=ترجمة حياة أي سيرة

Biographie: n.f =[2] سيرة ترجمة حياة

2- التعريف الإصطلاحي:

تعددت التعريفات في السيرة الذاتية واختلفت باختلاف صاحبها، إلاّ أنّ كل هذه التعريفات تساعد في تحديد الزوايا وتدقيق التعريف الإصطلاحي لها.

بالنسبة "لفليب لوجون" صاحب كتاب "السيرة الذاتية" فهو يرى أنّها «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته»[3] وهذا يعني أن الكاتب يعيد نسج الأحداث والذكريات التي عاشها سابقاً في قالب نثري معبرًا بها عن ذاته.

كما قدم تعريفات أخرى للسيرة الذاتية محاولاً ظبطها وكشف وإزاحة الضبابية عنها يقول: وتعني لفظة سيرة اليوم حسب الاستعمال:

---

(1) Voir: Jacques Le carme, Eliome Lecarme tabone: L'autobiographie édition 2 :Armond calim

(2) Dictionnaire français Arabe (Dictionnaire général, linguistique technique: et scientifique) par Bureau des études et recherches, dar Alkotob al ilmayh, beyrouth, Libon, p91.

(3) فيليب لوجون: السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، تر عمر حبلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1994، ص08.

أ. تاريخ إنسان مشهور عمومًا مروي من طرف شخص آخر وهو المعنى القديم والأكثر شيوعاً

ب. تاريخ إنسان غامض عموماً مروية شفوياً من طرفه لشخص آخر أثار هذا التاريخ من أجل دراسته

ت. تاريخ إنسان مروي من طرفه لشخص أو أشخاص يساعدونه، عن طريق سماعهم[1]

كما قد اقر لوجون أنّه لابد عليه من أخذ الاعتبار بتعددية معنى السيرة الذاتية أثناء استخدامه، والتي أخذت من انجلترا في أوائل القرن التاسع عشر لتدل على معنيين متجاورين لكنهما مختلفان مع ذلك:

أ. المعنى الأول: (هو الذي اختاره) حياة فرد ما مكتوبة من طرفه، معارضاً السيرة الذاتية التي هي نوع من الاعتراف مع المذكرات التي تروي أحداثاً يمكن أن تكون غريبة عن السارد وهذا المعنى هو الذي اقترحه لاروس سنة 1866.

ب. المعنى الثاني: (أكثر عمومية من الأول) حدد فيه السيرة الذاتية باعتبارها كل نص يبدو أن مؤلفه يعبر فيه عن حياته واحساساته، مهما كانت طبيعة العقد المقترح من طرف المؤلف، وهذا هو نفس المعنى الذي جاء به فايبرو في (المعجم الكوني للأدب) سنة 1876 الذي يقول فيه بأنّ السيرة الذاتية عمل أدبي رواية، قصيدة، أم مقالة فلسفية...الخ عبر من خلالها الكاتب عن حياته وأفكاره وأحاسيسه سواء كان ذلك بشكل ضمني أو صريح[2].

وتعطي "هيدي ستيل" تعريفاً واضحاً للسيرة الذاتية إذ تقول أنّها: «تسجيل إستعادي صادق لعمر أو على الأقل لعدد معتبر من سنينه من الخبرات والأفعال والتفاعلات وتأثيراتها الفورية والبعيدة المدى على الشخص»[3]

أما جورج مش المؤرخ الكبير لفن السيرة الذاتية في العالم، يرى أنّه من الصعب وضع تعريف دقيق لهذا الجنس الأدبي إذ يكتفي بقوله: «يمكن تعريفها بواسطة تلخيص مايدل على مصطلح السيرة الذاتية(Autobiography): وصف (Graphia) لحياة شخص (Bios) بواسطة الشخص

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص10.

[2] ينظر: فيليب لوجون السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ص10،11.

[3] صالح معيض الغامدي: "كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2013، ص15.

نفسه(Auto)»[1] وعليه فمفهوم السيرة عنده هو وصف حياة الشخص بواسطة الشخص نفسه، وبشكل فمفهومه هذا لم يخرج عن المفاهيم السالف ذكرها.

ويعرفها رينيه وليك وأوستن وارن في كتابهما نظرية الأدب: «والسيرة نوع أدبي قديم فهي من الناحية الزمنية والمنطقية، جزء من التاريخ إذ السيرة لا تفرق من حيث المنهج بين رجل السياسة والقائد والمهندس والمحامي، أو الرجل المغمور وكان كولريدج على حق حين قال إن أية حياة مهما تناهت في الضآلة يمكن أن تثير الإهتمام إذا رويت في صدق» [2]

أما في دائرة المعارف البريطانية «السيرة الذاتية هي المؤلف (الروائي) الذي يُسَجِلُ بصورة واعية وبصيغة فنية الحدث. ويعيد للحياة الدرامية لأنّ موضوعها الحياة، وفرع من الأدب يحتوي على تقرير عن حياة أشخاص وهي صيغة أدبية قديمة» [3].

ومن أبسط تعريفات السيرة الذاتية ماوضعه لها ستاروبنسكي في قوله: «هي سيرة شخص يرويها بنفسه» [4].

ومن هنا نستطيع فهم أن السيرة نص يكتبه صاحبه عن نفسه وتقتضي السيرة تسجيل الحوادث والأخبار مستوعباً جميع نواحي حياته إذ تشمل مراحل عمره (من الصغر حتى الكبر)، ومظاهر الحياة الشخصية لصاحبها وأحداثها الزمنية، مع مراعاة الصدق الفني فيها.

_ثالثاً: نشأة السيرة الذاتية:

إنّ الحديث عن تاريخ السيرة في الأدب العربي وعن نشأتها كفن مستقل بذاته يطول جدًا عمق جذورها وتشابك الآراء مابين مُعَرِّب ومُغَرِّب لهذا الفن، والتنقيب عن نشأة هذا الفن عند العرب يستغرق منا بحثاً كامِلاً إلاّ أنني سأحاول إعطاء لمحة عن جذورها التاريخية العربية، ولابد من التأكيد أن في السيرة هناك أزمة هوية بين من ينسبه للغرب ومن يعربه وسأحاول جمع المعلومات الكافية للنشأة التاريخية لهذا الفن حتى يتسنى للمطلع فيما بعد معرفة وجهات النظر في هذا الصدد.

---

[1] المرجع نفسه، ص12.

[2] رنيه وليك وأوستن وارن: نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، د.ط، 1992، ص103.

[3] شعبان عبد الحكيم، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، ص13.

[4] تماني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع الأردن، ط1، 2002، ص10.

1. نشأتها عند العرب:

إنّ الأدب العربي من بين أهم الآداب وأزخرها بشتى الأنواع الأدبية فلا يخفى على المطلع عليه أن هذا الأدب أخذ له من كل طرف ما جعله متنوعاً وغزيرًا. وبالتعمق والغوص في أعماق هذا الأدب نجد أنّه كان الأصل لبعض الأجناس الأدبية بينما في بعض الأحيان نجده استمدها من الثقافة الغربية خاصة فيما يتعلق بالأجناس المستحدثة نوعاً ما فعلى سبيل المثال نذكر "المسرح" و"الرواية" واللذين يعتبران فنين أدبيين ذَوَا أصول غربية.

وما يهمنا نحن هو "أدب السيرة الذاتية" في الأدب العربي وجذوره، وقبل الخوض في هذا الحديث لابد من التنويه بأنّ العرب قديماً قد استخدموا مصطلح سيرة وترجمة بمعنى واحد وإن كانت الدراسات تشير إلى أن مصطلح السيرة هو الأسبق في الإستخدام فقديماً لم تتخذ السيرة مصطلحاً خاصاً بها في الأدب العربي.

ونجد العديد من الباحثين الذين أحاطوا هذا الأمر بالبحث الدقيق كالدكتور شوقي ضيف الذي يرى أن أقدم شكل لسيرة كان عبارة عن نقوش على قبور الفراعنة «أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم»[1].

أما إذا سرنا بالزمن إلى العصر الجاهلي فأول مايسترعي انتباهنا أن جل أشعار العرب آنذاك كانت عبارة عن تسجيل وتدوين لأيامهم وحروبهم وشؤون حياتهم فشعرهم سجلهم، وهذا مايتقاطع مع سمات السيرة الذاتية ونستدل على ذلك بقول لحسن أحمد الزيات إذ يقول أن شعراء العرب: «لم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلاّ نظموه، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، وشاهد صوابهم وخطئهم ومادة حوارهم وسمرهم.»[2] فالشعر الجاهلي إذن كان وسيلة لتوثيق أحداث الحياة وتجارب العرب كالحروب والمعارك والحياة الاجتماعية والثقافية والدينية للعرب في تلك الحقبة، وهذا ما يتقاطع ويتلاقى فيه الشعر الجاهلي مع السيرة الذاتية. والسبب في عدم وصول الأشكال النثرية يرجع إلى قلة الكتابة آنذاك بالإضافة إلى كثرة الإطناب وذكر التفاصيل على عكس الشعر الذي يسهل حفظه وتداوله فكان ديوان العرب.

---

(1) شوقي ضيف: الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص07.

(2) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص30.

وبدخول الإسلام واعتناق العرب له، دوّن كتاب السيّر والمغازي أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسجلوا كل مايتعلق به إعجاباً بشخصيته وحبًّا، فيرى عمر بن قينة بأنَّ «السيرة كنوع أدبي إذن ذات نشأة دينية في طبيعتها تأثرًا بالقرآن الكريم، وحرصاً على تسجيل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم: غزواته وسنته»[1]، ويذهب إلى هذا الرأي أيضاً إحسان عباس الذي يرى "أن القرآن الكريم قد عمق الإحساس التاريخي عند العرب حيث قص عليهم قصص الأمم الخالية ووصلهم بالأمم وجعل تاريخ الخليقة مجالاً لنظرهم"[2].

وتذكر تهاني شاكر «أنّ أول قطعة من السيرة الذاتية وصلتنا هي ماروواه سلمان الفارسي (36هـ/656م) ...تحدث في هذه القطعة من السيرة الذاتية عن نسبه، وحبّ والده له وخوفه عليه، ثم عن أسباب تركه للدين المجوسي واعتناقه النصرانية»[3] وتعد هذه القطعة النواة الأولى التي انبثقت منها السيرة الذاتية العربية لتنتشر بعدها على مر العصور الأدبية المتلاحقة، ومن السير التي ذكرها إحسان عباس في كتابه: «سيرة عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين القائمة على التاريخ الممزوج بالتوجيه الخلقي، ولكن الأمر على غير ذلك في سيرة ابن طولون وجوهر الصقلي وجلال الدين منكبرتي، فبعض هذه السير لم تتوجه له همة المؤرخ إلاّ بطلب كسيرة الإخشيد التي كتبت بطلب من ابنه، وبعضها يكتبه من يعيش في ظل الوالي أو السلطان اعتذارا منه وتوجيها لبعض ما اشتهر من سيء أعماله»[4] ومن أقدم النماذج التي اطلع عليها العرب وتأثروا بها يذكر شوقي ضيف ماكتبه الفيلسوف والطبيب اليوناني المشهور جالينيوس الذي ضَمَّنَ كتبه الكثير من الإشارات والنوادر عن حياته كما ذكر سيرًا أخرى مثل ماكتبه أبو حامد الغزالي وأسامة بن منقذ ولعلّ أقرب هذه السير إلى الكمال الفني هي سيرة الغزالي في كتابه المنقذ من الظلال.

هذه النماذج المختلفة التي وصلتنا والتي يمكن اعتبارها الأسس والنواة الأولى التي انبعثت منها الكتابة السير ذاتية وتعتبر البذرة الأولى لهذا الشكل الفني، ونصل إلى نتيجة مفادها "أن الأدب العربي القديم لايقدم لنا سيرة ذاتية تحمل ملامح السيرة الذاتية الحديثة وسماتها؛ لأنَّ لكل عصر أدبي ملامحه وسماته الخاصة، كما أن الأشكال الأدبية في تطور مستمر، لذلك يمكن اعتبار هذه العناصر السير ذاتية التي وردت في كتب التراث البذور الأولى والنواة

---

[1] عمر بن قينة، الأدب العربي الحديث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان_الجزائر، ط1، 1999م، ص184.

[2] ينظر: احسان عباس: فن السيرة، ص13.

[3] تهاني شاكر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص38.

[4] إحسان عباس: فن السيرة، ص28.

المشكلة للسيرة الذاتية"[1] فحتماً لاتوجد سيرة ذاتية في جميع الآداب والأمم السابقة تطابق المعايير والمقاييس السيرية الموضوعة حديثاً، كون هذه المعايير تتبلور وتتغير جيلاً بعد جيل.

2. نشأتها عند الغرب:

يرى الكثير من النقاد الغربيين أن أصل السيرة الذاتية هو الغربيين أن أصل السيرة الذاتية هو الغرب وأن لا وجود له في الحضارة العربية كجورج ماي الذي يرى أن السيرة جنس أدبي خاص بالحضارة الغربية ولم يكن له وجود في الأدب العربي، أي أنّه أدب غربي بحت وقد شاركهم في الرأي بعض النقاد العرب كعبد الرحمن بدوي وشكري المبخوت.

وبحسب الدراسات المتوصل إليها فإنَّ «السيرة الذاتية بالمفهوم الحديث لم يكن لها وجود في الأدب الغربي قبل عام 1600، ثم ظهرت بعد ذلك وفي فترات طويلة حتى عام 1800، وإن كان هؤلاء الكتاب يتوخون مايشبه لبعض السنن الأدبية في كتاباتهم، ولكن رغم ذلك لم يستطيعوا صنع جنس أدبي جديد»[2]

ويؤكد الباحثون في تاريخ السيرة أن أقدم النماذج المتوصل إليها واللافتة للنظر نجدها في بلاد اليونان والرومان قديماً. لكنَّها تفتقد ما نعرفه عن السير من تحليل الذات والغوص في أغوار النفس «وأقدم ماكتب في السيرة كان على يد شخصين يونانيين هما تبوفراستوس (372-288ق.م) ويلوتارك (122-48ق.م) غير أنهما اهتما بالأنماط العامة أكثر من اهتمامهما بالصفة الشخصية...وقد ظهرت السيرة في الأدب الإنجليزي بداية من عام 1579م، وكان أول هذه السير موقوفاً على حياة القديسين وكانت هذه السير تتناول الأتقياء في صورة من الوقار»[3].

وقد وصف إحسان عباس هذه المرحلة بقوله: «ولعل أن هذه أسوء المراحل التي مرت بها السيرة الغربية يوم تسلمها رجال الدين، كونهم اتجهوا بها اتجاه الزهاد والمتصوفة، مبرزين كرامات وخوارق القديسين مما جعلهم

---

[1] ينظر: تهاني شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص64.

[2] شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، ص35.

[3] المرجع نفسه، ص35.

يبتعدون عن مسار السيرة متجهين نحو الوعظ والتذكير، غير أن هذا اللون من السير لم يكن اللون الوحيد في الغرب، فقد وُجدت سير العظماء والملوك، إلاّ أن النهضة أبعدت قليلاً طغيان الجانب الديني في الحياة»[1]

وإذا نحن تتبعنا تطور السيرة في الأدب الغربي في العصور القديمة والوسطى وجدنا أنَّ: «أشهر التراجم في العصور الوسطى هي اعترافات القديس أوغسطين التي تعتبر قمة الاعترافات الدينية وقد حذا حذوها من كتب بعده، وهي تذكر بما احتوته من صراحة وصدق وقدرة الاستبطان والتعري النفس والأصالة»[2] وينتصر لهذا الرأي أيضاً عبد العزيز شرف إذ يرى أن «اعترافات القديس أوغسطين saint Augustine (354-430) تستحق لقب أقدم سيرة ذاتية باقية»[3] إذ تحدث فيها بتفصيل عن حياته، وكفاحه، ومحبته لأمه وأهم المراحل والمحطات التي مر عليها في حياته، ويتبين لنا من خلال ذلك ومن خلال ماتعرفنا عليه أن اعترافات أوغسطين تتوافق إلى حد كبير مع السيرة الذاتية ومفهومها وماترمي إليه.

ويذهب جورج ماي إلى أن بداية هذا الجنس الأدبي لم ينفرد بها القديس أوغسطين لوحده فعلى سبيل المثال نجد جون جاك روسو Jean jacques rousseau «ولم ينفرد القديس أوغسطين أسقف (هيبون/Hippone) دَون كبار كُتَّاب السيرة الذاتية بالتأليف في هذا الجنس قبل أن يظهر اسمه فهذا روسو الذي أخذ عنوان أشهر كتاباته السير ذاتية يقر بوجود سابقين له على الأقل هما "جيروم كاردان" Jérome cordion الذي دَّون قصة حياته باللاتينية سنة 1575. و"مونتالي" Montaihne »[4].

ومن خلال القولين السابقين نستشف أن الريادة في هذا الفن الأدبي يرجع إلى القديس (أوغسطين) ذلك لأنَّه سبق جان جاك روسو بفترة طويلة.

أما في القرن السادس عشر وما تلاه، فقد ظهرت العديد من الأعمال التي تندرج تحت إطار السيرة والترجمة الذاتية كالمذكرات، اليوميات، الذكريات وسنحاول ذكر بعض الأمثلة عنها.

- أولاً: المذكرات: نذكر من أهمها: المذكرات الحربية للسير جيمس ميلفيل (1617م)، مذكرات روبرت كاري (1626م)، مذكرات السير جيمس تارنر (1670م).

---

(1) ينظر:إحسان عباس: فن السيرة، ص36، 37.

(2) يحي إبراهيم الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص13.

(3) عبد العزيز شرف: أدب السيرة، ص31.

(4) جورج ماي: السيرة الذاتية، تر محمد القاضي، عبد الله صولة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 2017، ص، 36.

- ثانياً: اليوميات: يوميات بلستروود (1675م) مذكرات جورج فوكس (1624_1691م)، يوميات جون إلفين (1706م) ويوميات صمويل بييس (1706م) [1] وهذه أهم الأعمال التي شهدتها تلك الفترة.

أما عن بروز وتميز السيرة في الأدب الغربي بوضوح فلم يكن كما كان في الأدب الإنجليزي ويرى إحسان عباس أن السيرة كجنس أدبي واضح المعالم، والأركان يعود للقرن الثامن عشر ويقول في ذلك «ولم تتميز السيرة بوضوح في أدب كما تميزت في الأدب الإنجليزي، وربما لم تصل في غير هذا الأدب ماوصلت من درجة فنية وهذا يشير إلى أن السيرة في شكلها الأدبي لاتزال حديث النشاة وأبعد نماذجها يرجع إلى القرن الثامن عشر»[2]

أما فيما يخص القرن الثامن عشر فهو عصر «الدكتور جونسون Dr. Janson ورفيقه بوزول Boswell وكلا الرجلين قد أدى لفن السيرة يدًا لا تنكر. وواحدهما لايذكر منفصلا في تاريخ الادب عن الآخر فعن طريق جونسون ذكر الناس بوزول كاتب سيرته. وعن طريق بوزول بقيت صورة جونسون»[3]

ومن السير التي شهدها هذا العصر وأصبحت من الأعمال الكلاسيكية في الأدب العالمي نذكر: السيرة الذاتية لبنجامين فراكلين وسلسلة المذكرات التي ألفها إدوارد جيببون عن نفسه[4] وعدد السير في هذا العهد كبيرٌ جدًا ولا يمكن ذكره بالتفصيل ولا حصره.

ومما لاشك فيه أنّ القرنين التاسع عشر والعشرين قد شهدا تطورات كبيرة في فن السيرة الذاتية ويعود السبب وراء ذلك «لانتشار المبادئ الرومانسية وعنايته بالفرد وأحاسيسه، واتصفت هذه السير بالجرأة والصراحة والتعري أكثر من غيرها فنجد بعض الكتاب يكشفون عن علاقات شخصية بدون تحرج مثل جان جاك روسو»[5] ومن أشهر السير الذاتية في الأدب الإنجليزي في القرن العشرين نجد: «ترجمة وليم بتلر بيتس

---

[1] ينظر: يحي ابراهيم عبد الدايم، ص15،16.

[2] احسان عباس: فن السيرة، ص37.

[3] المرجع نفسه، ص38.

[4] ينظر: عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية

[5] شعبان عبد الحكيم: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص36.

(ت1938م) وجورج مور الذي كتب ثلاث ترجمات (اعترافات شاب، مذكرات حياتي المنسية، سلاماً ووداعاً)...ومن السير التي لها مكانة في الأدب الغربي سيرة حياة هيلين كيلر بعنوان (قصة حياتي).» [1]

أما عن أشهر وأهم السير الذاتية في الأدب الفرنسي فنجد: «اعترافات روسو وكتاب صديقي أناتول فرانس ويوميات إميل (1882) ويوميات موريس دي جيران ويوميات أندريه جيد، ثم يوميات جابريال مارسيل»[2]

أما عن السير في الأدب الألماني فنذكر: «"يوميات سير كجارد"، "ورسائل هيغل" ورسائل جوته ثم الشعر والحقيقة لجوته" وثلاث ترجمات ذاتية لكارل ياسبرز هي حول فلسفتي، طريق الفلسفة، سيرة ذاتية فلسفية»[3]

وفيما يخص الأدب الروسي فنشير إلى: «اعترافات تولستوي، يوميات ماري بشكير تسيف، حوادث وأفكار ماضية لاسكندر هرزن، والحلم والواقع لنيقولاس برديائيف»[4]

مما سبق نستنتج أن الكتابة السيرية في الأدب الغربي كانت ذات بداية دينية مع اعترافات القديس أوغسطين وبصفة محتشمة، إلا أنّ الملاحظ فيما بعد أن الكتابة في فن السيرة قد ازدهرت وذلك نتيجة لكثرة الكتابات والإقبال والإهتمام الواسع الذي لاقته من قبل القارئ الذي أصبح مهتماً بهذا الجنس الأدبي لأنّها تزيد من ثقافته ومعلوماته مستفيدًا من تأريخها للعصر، آخذًا العبرة من أحداثها.

---

[1] يحي ابراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص20.

[2] المرجع نفسه، ص30.

[3] المرجع نفسه، ص30.

[4] ينظر: المرجع نفسه، ص31.

الفصل الأول: السيرة الذاتية وأشكالها في الأدب العربي الحديث والمعاصر

أولاً: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث والمعاصر:

لقد لاحظنا في مستهل بحثنا هذا الإشكاليات والتضاربات الكثيرة والمختلفة حول ظهور هذا الجنس الأدبي وكيف أنّه من الصعب تحديد أولى صوره التي عرفها في أدبنا العربي، فحاولنا العودة إلى الجذور والأصول الأولى لهذا الفن من خلال رصدنا لمواطن الخلاف والإختلاف بين الباحثين والنقاد، وأرتأينا أن نواكب سير هذا الفن خاصة وأنّه قد أصبح له مكانة هامة في الأدب العربي الحديث والمعاصر، نظرًا للتطور الذي مس الأدب في العصر الحديث والذي واكبته السيرة، شأنها شأن الأجناس الأخرى التي مرت بمراحل تطورت فيها حتى تلائم العصر، وسنحاول في هذا الباب تتبع نشأة وتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.

إنَّ ملامح ومعالم التطور في الأدب العربي الحديث استمِدت بداية من الغرب إذ «في القرن التاسع عشر بدأت مصر والعالم العربي بنهضتها وشرعت تنفض عنها غبار الجمود والتخلف. وبدأ اتصالها بركب الحضارة المتقدمة التي جعلت المصريين والعرب يستفيقون من غفوتهم ويحسون بضرورة الخروج من حالة الجمود لإدراك مافاتهم من تقدم وملاحقة ركب الحضارة والثقافة الذي تخلفوا عنه بعد أن كانوا فيما مضى في مقدمته»[1] ومنه فقد استطاع الأدب العربي أن يستمد من الغرب في محاولة منه للحاق بركب الحضارة واستدراك مافاتهم خلال فترة جمود الأدب العربي.

لابد من التأكيد على أن «في نهاية القرن التاسع عشر، بعد أن اتصل العالم العربي بركب الحضارة الغربيّة ظهرت إرهاصات هذا الفنّ في الادب العربي الحديث. وقد كانت هذه الإرهاصات في معظم الحالات وثيقة الصلّة بالموروث التراثي وفي بعض الحالات متأثرة بالأدب الغربي»[2]

وإذا ماعدنا إلى السير في الأدب العربي الحديث وجدنا اختلافاً حول الإرهاصات الأولى لهذا الفن في العصر الحديث، وقد تعددت الآراء واختلفت تبعاً لرؤية الباحث والناقد، وسنحاول الوقوف على بعض هذه الآراء. ولعل أكثر النقاد توسعاً في الحديث عن إرهاصات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث كان يحي إبراهيم عبد الدايم والذي يرى أن البوادر الأولى لهذا الفن كانت مع رفاعة الطهطاوي في كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وعلي مبارك في "علم الدين".

---

(1) يحي إبراهيم الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص45.

(2) تماني عبد الفتاح شاكر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص67.

فيصور لنا الطهطاوي خلاصة تجربته إلى فرنسا، إماماً للبعثة التي أرسلها محمد علي إلى هناك، لتلقي العلم من منابعه الأصلية...وقد استهلها بتعريف نسبه وبلدته وأسرته التي جار الزمان عليها بعد سعة من العيش، وعمله واعظاً في الجيش، وسفره مبعوثاً إلى باريس.[1]

«أما علي مبارك فقد خلف لنا ترجمة ذاتية هي سيرة كاملة لحياته إذ كتبها سنة 1889 قبيل وفاته بأربع سنوات، وأثبت فيها مراحل تعلمه في مصر وفرنسا وماتولاه من أعمال ووظائف وما أدخله من إصلاحات خاصة في مجال التعليم في مصر»[2]

وعلى العكس من ذلك ترى تهاني شاكر أن أولى الإرهاصات لهذا الفن ترجع لمحمد بن عمر التونسي في كتابه "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العربان والسودان" عام (1832م) «بدأ عمر سيرته بالحديث عن تعلّمه للعربية، ثم تحدّث عن الوظائف التي شغلها، وبعد ذلك تحدّث عن رحلته إلى بلاد السودان "دافور".»[3]والسبب وراء رحلة محمد بن عمر التونسي هو البحث عن والده الذي غادر البلد دون رجعة.

وتنطوي وجهة نظر إحسان عباس على أن أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث هي "كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق" للشيخ أحمد فارس الشدياق والتي تحدث فيها عن تنقلاته وأحواله.

وتماشياً مع ماتم ذكره لابد من الإشارة إلى أن السير السابق ذكرها تشترك في تأثرها بالتقاليد الموروثة للأدب العربي فنجد أن محمد عمر، والشدياق في كتابتهما لسيرتهما الذاتية مدى تأثرهما بالتراكيب العربية الموروثة، وعدم تمكنهما من التخلص من أسلوب المقامة.

أما سيرتا رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك فإنهما لا تختلفان كثيرًا عن السيرة الذاتية التي خلفها علماء العرب منذ القديم[4]

ويعد كتاب الأيام لطه حسين النموذج الكامل المتمثل في مفهوم السيرة الذاتية في العصر الحديث وخاصة في الجزء الأول منه، وذلك لمزايا كثيرة منها:

---

(1) ينظر: شعبان عبد الحكيم، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص32.

(2) يحي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص52.

(3) تهاني عبد الفتاح شاكر: السير الذاتية في الأدب العربي، ص67.

(4) المرجع نفسه، ص71.

- الطريقة البارعة في القص
- الأسلوب الجميل والعاطفة الكامنة في ثناياه
- اللمسات الفنية في رسم بعض الصور الكاملة للأشخاص
- القدرة على عدم السخرية اللاذعة في ثوب جاد حتى يظهر وكأنّها غير مقصودة[1]

ويظهر جلياً مدى طغيان التمظهرات الأدبية بشكلها الواسع في كتاب الأيام، وعلاوةً على ذلك فإنّ كتاب الأيام «صورة واعية للصراع بين الإنسان وبيئته وكاتب يعمد عمدًا إلى تصوير ذلك الصراع، ولايدعه ليستنج من طبيعة السيرة نفسها، فهو يصف مراحله ويتدرج بها معتمدًا على أن حياته خير مثل للانتصار على البيئة، والوصول في النهاية»[2].

«ونجد عند طه حسين في كتابه الأيام صفحات ممتعة وعميقة حول ظروف التعليم في الأزهر...والدلال في شهادة طه حسين أنه كان يتعلم المنطق رغم أنّه كان لايبصر...كان متساوياً مع زملائه المصريين»[3]، وتنطوي وجهة نظر الكثير من النقاد والباحثين على أن كتاب الأيام لطه حسين كان له الأثر الكبير في الأدب العربي الحديث، وتأثيره أشبه بتأثير اعترافات روسو في الأدب الفرنسي، إذ يعد النموذج الأمثل الذي يعكس جنس السيرة الذاتية العربية الحديثة، حسب المعايير والأسس الغربية.

وتتابعت الكتابة في السيرة الذاتية في الأدب العربي لنجد كتاب "حياتي" لأحمد أمين والذي كتبه في آخر أيام حياته، واصفاً لها من أولها إلى أواخرها تقريباً، وما يلاحظ على هذا الكتاب هو تأثر صاحبه بسيرة طه حسين (الأيام) «وليس سبب هذا التأثر ما أحرزه كتاب الأيام من شهرة أدبية فحسب، بل هو في تلك النشأة الأزهرية المشابهة لنشأة صاحب الأيام وفي العلاقة بين الأديبين»[4]

ويمكن اعتبار التنشأة الأزهرية والعلاقة بين الأديبين نقطة مهمة لتشارك والتشابه بين السيرتين إذ لابد وأن تتقاطع هذه الصلات لدى الطرفين (طه حسين وأحمد أمين) مما يوحي لدى القارئ بتأثر صاحب كتاب "حياتي" بكتاب "الأيام".

---

(1) ينظر، احسان عباس، فن السيرة، ص131.

(2) المرجع نفسه، ص132.

(3) صدوق نور الدين، سير المفكرين الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص34.

(4) احسان عباس: فن السيرة، ص135.

ومن زاوية أخرى فأحمد أمين «في هذا التسجيل قلما انفعل بما يرى ويشاهد على عكس طه حسين في أيامه التي تشبه مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أي حجاب أو أي مواربة»[1]

«وإلى جانب ماسبق ذكره نضيف نماذج أخرى «سارت على طريقة الأولين في العصر الحديث كسيرة "أنا" و"حياة قلم" للعقاد، و"زهرة العمر" لنوفيق الحكيم، و"قصة حياة" لإبراهيم عبد القادر المازني، و"سبعون" لميخائيل نعيمة، و"قال الراوي" للشاعر المهجري إلياس فرحات، و"قصة حياتي" للدكنور مصطفى الديواني و"مذكرات طالب بعثة" و"أوراق العمر" للدكتور لويس عوض، وفي "صالون العقاد" و"إلاَّ قليلاً" لأنيس المنصور»[2]

وغيرها كثير من النماذج الأدبية لفن السيرة الذاتية والتي يصعب حصرها وعدها، وهذا إن دل على شيئ إنّما يدل على الإقبال الكبير للأدباء على كتابة سيرهم، مما لايدع مجالاً للشك بأن «فترة الستينات هي فترة اكتمال معالم النصوص السيرة الذاتية العربية الحديثة في طورها التأسيسي للجنس، وبلوغها أوج كثافتها وتعدّدها»[3]

تتفق وجهات النظر أنّ هذه المرحلة هي من بين أهم المراحل التي ساهمت في تطوير وترسيخ السيرة الذاتية العربية وبلورتها حيث أن هذه المرحلة ساهمت في هذا الجنس الأدبي سواء على مستوى الشكل والبناء أو على مستوى التأليف والتدوين فيه، الأمر الذي يقضي إلى إثرائه وتخليده وتطوره، وهذا لايعني أن المراحل السابقة لم يكن لها دور بل على العكس فهي تعتبر حجر الأساس له وركيزته، وقد كانت هذه إفادة للسير العربية بشكل لا أحد يستطيع إنكاره. ويتابع التأليف في فن السيرة الذاتية ليشهد إقبال عدد كبير من الأدباء والمثقفين على كتابة سيرهم، ومن بين الحاذقين في كتابة السيرة الذاتية القاص والروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي في كتابه السير ذاتي "أية حياة هي؟_سيرة البدايات" والذي «يخلص لفن السيرة الذاتية إخلاصاً تاماً، إذ يسلّم للذاكرة النشطة الخلاّقة مقاليد السرد السير ذاتي ويعطيها كامل الحرية في رواية الأحداث، على نحو تتجلى فيه الذات الحكائية تجلياً كاملاً لتجعل السارد ضميرًا سَيْرَ ذاتياً صافياً ومتطابقاً تماماً مع مايسرده من أحداث»[4]

---

(1) شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 121.

(2) عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، ص58.

(3) جليلة الطريطر، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص355.

(4) محمد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2011، ص07.

وتستوقفنا حقيقة أنّه لا يمكننا الإحاطة ولا التفصيل في السير الذاتية الحديثة والمعاصرة، فكما ذكرنا سابقاً فالتأليف في هذا الجنس الأدبي كان كثيرًا ومتعددًا وسندرج هذا الجدول للإشارة إلى بعض السير الذاتية التي تعسر علينا ذكرها كون الحديث في هذا الباب سيطول وسيصعب حصره.

المؤلف	عنوان السيرة
– سلامة موسى	– تربية سلامة موسى
– توفيق يوسف عواد	– حصاد العمر
– بنت الشاطئ	– على الجسر
– محمد شكري	– الخبز الحافي، الشطار
– جبرا إبراهيم جبرا	– البئر الأولى، شارع الأميرات
– حنا مينا	– بقايا صور المستنقع، القطاف
– فدوى طوقان	– رحلة جبلية صعبة
– خليل حسن خليل	– الوسيلة
– إحسان عباس	– غربة الراعي
– عبد السلام العجيبلي	– جيش الإنقاذ
– شوقي البغدادي	– ليلى بلا عشاق (سيرة ذاتية شعرية)
– رفعت السعيد	– مجرد ذكريات
– إدوارد سعيد	– مذكرات خارج المكان
– يوسف القرضاوي	– مذكرات ابن القرية والنتاب
– نوال السعداوي	– أوراقي...حياتي

ونستخلص مما سبق أن السيرة الذاتية ازدهرت ازدهارًا كبيرًا في الأدب العربي، خاصة في العصر الحديث والمعاصر، وهذا إن دل على شيء إنّما يدل على أن هذا الفن لاقى إقبالاً وإهتماماً كبيرًا من طرف القراء.

- **ثانياً:أشكال السيرة الذاتية:**

تعد السيرة من بين أصعب الفنون الأدبية ظبطاً وتصنيفاً، ويرجع ذلك إلى التعدد الكبير في الأشكال والأساليب، واختلاط الأجناس الأدبية مع بعضها البعض إلى الحد الذي جعل التفريق بينها أمرًا صعباً في كثير من الأحيان «ومرجع ذلك طبيعة هذا النوع الأدبي الذي ينفر من التجنيس، وفيها يعرض المؤلف لحياته الواقعية، في أسلوب أدبي أو علمي متأدب، وفي أشكال فنية متعددة غد يتخذ الشكل الروائي أو الشكل المقالي، أو الاعترافات أو المذكرات أو الذكريات...الخ»[1].

وعليه نجد أن السيرة الذاتية تتخذ أشكالاً مختلفة تتجلى من خلال أسلوب الكاتب أو الطريقة التي يكتب بها، وسنحاول في الباب تبيان الأشكال الأدبية التي تتقاطع مع السير الذاتية، مع محاولة التمييز بينها وبين السيرة الذاتية، ويمكن توضيح هذه الأشكال في المخطط الآتي:

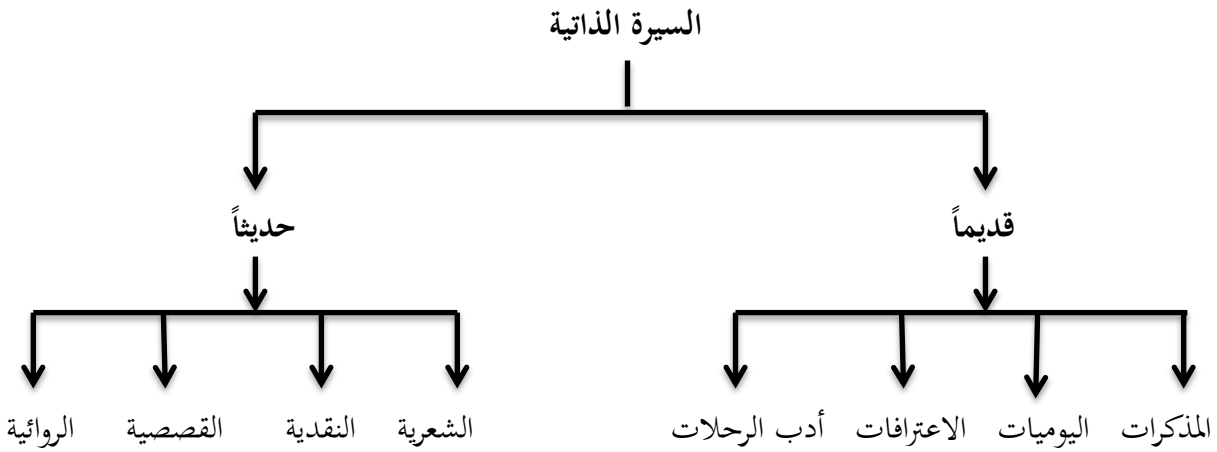

مخطط لأهم الأشكال السيرية في الأدب

(1) شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص13.

1) اليوميات Journal intime:

شكل من أشكال الكتابة السيرية يعرفها لطيف زيتوني بقوله: «خواطر ووقائع ومشاعر وأخبار يدّونها الكاتب، يوماً بعد يوم، ولا يجمعها سوى اندراجها في مجرى يومه. وقد ظهر هذا اللّون في أروبا في القرن الثامن عشر استجابةً لميل متزايد عند الفرد للنظر في نفسه...يكون السرد في اليوميات مزامناً للحدث تقريباً، بينما السرد يلحق الحدث في المذكرات والسيرة الذاتية. وتغفل اليوميات عنصرًا أساسياً من عناصر الخلق الأدبي هو الخيال...واليوميات عموماً كتابات خاصة لا يقصد الكاتب نشرها بين الناس.» [1]

وفي تعريف آخر نجد أنّ «اليوميات سِجِلٌ للتجربة اليومية، والحفاظ على عملية حياة المرء بالذات، دون نظر إلى التَّطور الذي يحاكي نموذجاً معيناً، أو التواصل القصصي، أو الحركة الدرامية نحو ذروةٍ ما.»[2] وهذا مايميزه عن السيرة التي تتبع خطاً درامياً للأحداث.

وفي موقف آخر نجد أنّها «سرد سيري يخضع خضوعاً كاملاً لسلطة الزمن اليومي، ويتقيّد كتابياً بالظروف الزمكانية والنفسيّة والإجتماعية لكيفية اليوم الذي تسجل فيه كل يومية، كما يستند شكل اليومية _لغة وتشكيلاً_ إلى طبيعة الأحداث الشخصية، فتكون قصيرة أو متوسطة الطول أو طويلة وتكون قائمة على حدث واحد أو مجموعة أحداث، وتكون ذات حيوية وحرارة وإثارة وتنّوعاً وتظهر حماس الراوي أو قلة حماسة، وتكون ذات طابع حكائي أو وصفي أو قد تكتفي بالإشارات والملاحظات والبرقيات»[3]

إذن فاليوميات أعمال جامدة ترتكز على حياة الكاتب وتسلسلات أحداثها مع تدوينها ونقلها بدقة، وتخضع اليوميات للظروف الزمكانية والنفسية والاجتماعية حيث أنّ الثابث كتابتها لحظة وقوع الحدث.

والملاحظ أن اليوميات لاتتخذ نمطاً فنياً ولا تتقيد بشروط فنية محددة، إلا أنّه على الرغم من ذلك فهي تشبه السيرة الذاتية وذلك فيما يتعلق بموضوعها فكلاهما سجل يسرد فيه صاحبه تجاربه كاشفاً تفاصيل من حياته، أما عن طبيعة العلاقة بين اليوميات والسيرة الذاتية فهي علاقة جزء بالكل فاليوميات شكل من

---

(1) ينظر: لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1، 2002، ص179.

(2) عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، ص44.

(3) محمد صابر عبيد المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص232.

أشكال السيرة بالأساس وفضلاً عن ذلك يمكن الكاتب السيري أن يستعين باليوميات ويضمنها في في سيرته كونَّها تساعده على استرجاع الماضي وأكثر دقة وتفصيلاً.

أما عن أهم الفروق الجوهرية بين "السيرة" و"اليوميات" فنذكرها كالتالي:

- نقل اليوميات المواقف والأحداث بدقة

_المساحة الزمانية الفاصلة بين الكتابة (ففي اليوميات تكون آنية على عكس السيرة التي تكتب مع مرور الوقت) اليوميات «لاتعتمد على آليات السرد الاسترجاعي كما هو الحال في السرد السيري، لأنَّ الزمن الحاضر الآني هو الزمن المهيمن في اليومية، لذا فهي تفتقر إلى صورة الترتيب الزمني التصاعدي الذي نجده في السيرة»[1]

مثال عن اليوميات:

_ ولدن أو الحياة في الغابات لهنري دافيد ثورو Henry David Thoreou (1854)

_ يوميات صمويل بييز Samuel peys (1660_1669)

_المفكرات اليومية لأندريه جيد André Gide (1949_1950) وهي في المقام الأول مهتمة بتطويره لمهارته الفنية وليس بحياته الخارجية.[2]

كما يمكن للأشكال المتصلة باليوميات والمفكرة اليومية والسيرة الذاتية أن تندمج معاً، لتحقيق استعراض كامل بصفة خاصة لحياة المرء أو جزء منها ومن أحسن الأمثلة هذا الإندماج (رواية بيت الموتى) لفيودورو دستويفسكي الذي هو رواية خاصة شخصية للسنوات الأربع التي أمضاها في سيبيريا، تنفيذًا لعقوبة وقَعت عليه، ونجاته في آخر لحظة عام 1849 من الموت أمام فرقة الإعدام رمياً بالرصاص.[3]

أما عن اليوميات في المدونة العربية فأبرز نموذج نقدمه هو:

_يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم

(1) محمد صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص233.
(2) عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، ص44.
(3) المرجع نفسه، ص45.

_يوميات أبي القاسم سعد الله التي جمعها في مسار قلم.

2) الإعترافات: Confessions

فن من الفنون الأدبية النثرية يروي فيها صاحبها حياته الحميمة ويساعد على خلاص الآخرين وتوضع الاعترافات في خدمة الإيمان ويسعى كاتب الاعترافات الحديثة إلى وعي ذاته ووضعها في مواجهة المؤسسات الإجتماعية والبحث عن المجد لنفسه ويقول بنفنيتو سليني من أدى عملاً حسناً أو يبدو له كذلك عليه أن يروي حياته بنفسه، شرط أن يكون شريفاً وأهلاً للثقة، ولكن ينبغي أن لاننكب على هذا المشروع الجميل إلا بعد الأربعين من العمر[1].

وفي تعريف آخر نجد أن الاعترافات «سرد نثري استعادي يندفع فيه الراوي الذاتي إلى منطقة مثيرة وحساسة وخطيرة في سيرته الذاتية، يروي فيها مثالب شخصيته وأخطاءها وخطاياها وسلبياتها بأسلوب اعترافي صريح، من دون مبالاة للمواضعات الاجتماعية والقيم الأخلاقية التي يمكن أن تحل بها أو تجرحها»[2] أي أن الراوي والسارد صاحب السيرة أثناء كتابته يعترف بكل أخطائه وذنوبه وبأسلوب صريح، كشكل من أشكال العلاجات النفسية إذ أنّه الدافع الرئيسي للاعترافات هو تخفيف الشعور بالذنب الذي يثقل كاهل صاحبها وتجدر الإشارة إلى أن السرد الاعترافي «يستخدم الآليات والتقنيات والطرائق ذاتها التي يستخدمها السير ذاتي، غير أنّه يتدخل على نحو أعمق في طبقات الشخصية الجوانية...كما يتطابق مع السرد السير ذاتي في آلية التطابق بين الراوي والمؤلف والشخصية.»[3] ومن خلال هذا القول يمكننا التمييز بين أهم أوجه الاختلاف والتشابه بين الاعترافات والسيرة الذاتية والتي سندرجها في جدول على شكل نقاط مختصرة:

أوجه التشابه	أوجه الإختلاف
_كلاهما سرد _ تشترك الاعترافات مع السيرة في استخدامها لنفس طرائق السرد السيري _تطابق السرد السير ذاتي في آلية التطابق بين	_تركز الاعترافات على الجانب السلبي من حياة وشخصية الفرد (كالخطايا والعيوب الشخصية) _ يتسم أسلوبها بالجرأة واللامبالاة للقيم الاجتماعية والأخلاقية والتي قد تضع صاحبها في

(1) ينظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص23.

(2) محمد صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص 230.

(3) المرجع نفسه: ص230.

الراوي والمؤلف والشخصية.	موضع اجتماعي لا يحسد عليه _الاعترافات أكثر عمقاً وغوصاً في خبايا النفس وداخل الشخصية الإنسانية.

ويرى ابراهيم عبد الدايم أنّ أغلب الاعترافات وأكثرها تنصرف إلى «معالجة مايشغل نفس الإنسان من مسائل روحية وفكرية»[1] كما يذكر في موضع آخر من الكتاب أن الاعترافات مستقاة من تقاليد الاعتراف الديني وأن ماساعد على إستمرارها (طائفة الرسوليين) والتي كانت تنشر آنذاك مواعظ بأساليب أدبية قصد هداية النّاس[2].

وبهذا يمكن القول أن السرد الاعترافي هو سرد سير ذاتي يفضي به الكاتب عن أسراره بنوع من الجرأة والتعرية والملاحظ أنّ هناك تداخلاً بين الاعترافات والسير فعلى المستوى النوعي فالاعترافات تدور في فلك السيرة الذاتية كون هذه الأخيرة أعم وأشمل مما يجعلنا نقول أن كل اعتراف سيرة وليس كل سيرة اعتراف، ولتحديد النوع السير ذاتي بين الاعترافات والسيرة الذاتية يتم الإحتكام إلى الميثاق الذي يحدده الكاتب في وصف مرويّه الذاتي.

3) المذكرات: Les mémoires

من الأشكال الأدبية التي ترتبط بالسيرة الذاتية ارتباطاً وثيقاً جعل الفصل بينها وبين السيرة أمرًا عَصيّاً إن لم نقل مستحيلاً ولعل «الشكل الوحيد الذي له صلة، والذي من الصَّعب، إن لم يكن من المستحيل فصله مَنْطِقياً من السيرة الذَّاتية هو المذكرات mémoires. فكاتب المذكرات عادةً هو شخص لعب دورًا مُمَيزًا في التاريخ أو أتيحت له الفرصة لكي يشاهد عن كثب التاريخ في صنعه»[3] وهذا يعني أن الكاتب يعاصر التاريخ المذكراتي المسجل، فالكاتب يلعب دور السارد لأحداث التاريخ من خلال نظرته له.

وقد تتابع هذا الخلط بين الجنسين ليتوصل إلى أن «أول ظهور كلمة مذكرات في اللغة سابقة بقرون على ظهور كلمة السيرة الذاتية فلا عجب أن تكون كلمة المذكرات قد أطلقت على مجموعة من التواليف أكثر بكثير من تلك التي أطلق عليها إسم السيرة الذاتية»[4]

(1) يحي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص36.
(2) المرجع نفسه، ص17.
(3) عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، ص38.
(4) جورج ماي، السيرة الذاتية، ص125.

هذا فيما يخص الإشكاليات والخلط الحاصل بين المذكرات والسيرة الذاتية، وحري بنا هنا التطرق إلى مفهوم يوضح لنا الإلتباس الحاصل وعليه نذكر على المستوى الإصطلاحي تعريفاً أولياً «مذكرات Memoires_Memoirs سيرة ذاتية، في الغالب تنقل تجارب الماضي المعاشة إلى الناشئة، وتعتمد نظرة توليفية للأحداث تسمح بإعادة ترتيب الوقائع بما يوافق رغبة الكاتب.»[1]

وفي نفس الصدد نجد أنها «حكي استرجاعي يقوم فيه الراوي المذكراتي بوصفه مشاهدًا بمراجعة مدونّات سبق وأن سطرها في ظروف معينة، فيعيد كتابتها برؤية متكاملة وراهنة تتجه إلى التاريخ والأحداث والموضوعات والقضايا، أكثر من اتجاهها إلى البناء الشخصاتي للراوي كما هو الحال في السيرة الذاتية أو الغيرية، إذ يقتضي البناء السيري التزاماً بحدود الشخصية في خصوصياتها الذاتية وفي خروجها إلى الأحداث والموضوعات والقضايا»[2]

إذن فالمذكرات تدوبن للأحداث التي مر بها صاحبها في شكل متسلسل، والمذكرات على خلاف السيرة الذاتية التي تروي أحداثاً شخصية مُعتمِدة في ذلك على الذاكرة، والمذكرات في سردها تركز على الظروف الخارجية والمحيطة بالكاتب، دون التعليق على الحياة الشخصية لصاحب المذكرات.

وتجدر الإشارة إلى أن القرن السابع عشر عرف ظهورًا لمذكرات مختلفة كتبها العديد من الشخصيات العامة وكان فحوى هذه المذكرات هو دور كُتَابها في تشكيل الأحداث، بعيدًا عن تصوير الحياة الشخصية، ويغلب هذا الاتجاه في المذكرات السياسية والحربية والتي بدأها "ملقيل".[3]

ونميز في القرنين الثامن والتاسع عشر، إختلافاً في المادة التي يقدمها أصحاب المذكرات «فكاتبها يصرف عناية عظيمة إلى تصوير التاريخ النفسي لحياته، مبيناً كيف كانت غير عادية ومعظم هذه الترجمات الذاتية مجملة لا تتجاوز صفحاتها الخمسين وأكثرها تشير إشارةً موجزة إلى أسلافه وتاريخ ميلاده وحياته العلمية إلى نضوج العمل الفكري والمحاولات التي بذلها كاتبه في إنجازه.»[4] وفيما يلي أمثلة عن المذكرات:

أ. عند الغرب:

(1) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص146.

(2) محمد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص231.

(3) ينظر: يحي إبراهيم الدابم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص16.

(4) المرجع نفسه، ص17.

_مذكرات الرئيس الأمريكي هاري ترومان (1955_1956) من خلالها نعرف قدرًا كبيرًا عن المجتمع الذي حوله موضوع المذكرات وقليلاً عن الكاتب نفسه.

_المذكرات الحربية للسير جيمس ميلفيل (1617)

_مذكرات السير جيمس تارتر (1670) [1]

ب. عند العرب:

ونقدم فيما يلي مثالاً عن المذكرات العربية وهي:

_ مذكرات أسامة بن منقذ التي سماها (كتاب الإعتبار) ففيه يتحدث أسامة عن حياة حافلة بالتجارب والمشاهدات والمغامرات، في أسلوب بسيط ينقل الحوار فيه باللغة الدارجة في ذلك العصر[2]

_مذكراتي في نصف قرن لأحمد شفيق.

_مذكرات محمد فريد أبو حديد.

_مذكراتي لعبد الرحمن الرافعي.

_خليها على الله ليحيى حقي.

_مذكرات الشابي.

ولعله من المفيد أن نؤكد «أنَه لا يمنع حصول الكثير من التداخلات أو التقاطعات أو الإلتحامات أو التوافقات بين السيرة بنمطيها والمذكرات، كما أن المذكرات يمكن أن تكون ذاتية ويمكن أن تكون غيرية أيضاً ولا تكون فيها عملية الإسترجاع طويلة ومتكاملة كما هو الحال في السيرة الذاتية بل يجب أن كون قصيرة»[3]

- وهذا جدول للمقارنة بين المذكرات والسيرة الذاتية:

(1) يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص15.

(2) إحسان عباس، فن السيرة، ص128.

(3) محمد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص231.

المذكرات	السيرة الذاتية
ـتبنى على أساس الوقائع التاريخية ـتهتم بالظروف الخارجية والمحيطة بالكاتب ـعملية الإسترجاع فيها قصيرة ـ يمكن أن تكون ذاتية وغيرية	ـتركز على الذاكرة في سردها للأحداث ـتهتم بالكاتب فيسرد عن نفسه وذاته (البناء الشخصاني) ـعملية الإسترجاع فيها طويلة ومتكاملة ـ يمكن أن تكون ذاتية وغيرية.

4) أدب الرحلات: Littérature de voyage

لقد عرف الأدب العربي فن الرحلات منذ القدم، فأولى الكتاب إهتماماً وأفاضوا في التأليف والكتابة، وهو فن ذو خصائص معينة و«هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ماجرى من أحداث وماصادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والإجتماعية لأنّ الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهد الحية، والتصوير المباشر مما يجعل قراءتها ممتعة ومسلية»[1] ويظهر لنا جلياً من خلال هذا القول أن موضوع هذا النثر الأدبي هو الرحلة بحيث يحاول المرتحل تصوير المشهد الذي رآه أثناء سفره، وتكمن أهمية الرحلات في كونها مصدرًا من المصادر العلمية، فقد دونت التاريخ ورسمت حدود الخرائط الجغرافية والثقافة الشعبية.

إلاّ أنّ مايهمنا في هذا المقام هو مدى تعالق أدب الرحلات مع فن السيرة الذاتية وإستيضاح الأمور أكثر نضيف تعريفاً آخر يرى أن أدب الرحلات في ذلك «سرد نثري يعتمد آلية الوصف المشهدي، ويقوم الراوي المرتحل الذي ينتقل بين المدن والأماكن بوصف مشاهداته، بكافة حواسه في رسم الصورة المنقولة والتي يدعمها بموقفه الشخصي منها»[2]

ومن خلال القولين السابقين سنحاول أن نميط اللثام، ونسلط الضوء على أدب الرحلة كشكل من أشكال الأدب السير ذاتي. ومن خلال ماسبق أن أدب الرحلة يدخل ضمن السير لأن المؤلف والراوي والرسالة هو نفس

(1) الرحلة المغربية قضايا وظواهر، لخضر حشلافي، الرحلة المغربية وخصائصها الفنية واليلاغية، دار الضحى للنشر، الجلفة الجزائر، ط1 2017، ص58.

(2) صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص234.

الشخص أضف إلى ذلك أن طريقة التدوين في هذا الأدب تتقاطع إلى حد كبير مع طريقة التدوين في السير وهذا مانجده في قول جورج ماي الذي يرى أن: أدب الرحلات جنس أدبي بين الأجناس الصغرى المتفرعة عن المذكرات والصحافة الملحقة بهما وفي أجناس فرع عن أجناس أخرى لم تفت السيرة الذاتية تستمد منها بعض النماذج.

وتماشياً مع ماتم ذكره نُقدِم مثالاً، ولعل أنسب مثال لذلك ماقدمه لنا مؤرخنا سعد الله الذي ألف كتاباً بعنوان "تجارب في الأدب والرحلة" يقول سعد الله عن رحلته إلى المغرب «وقد سجلت كعادتي في كل بلد أزوره يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي، صبّاً عفوياً لا تنسيق ولا تفنن»[1]

وهذه المشاعر والقراءات واللقاءات التي نقلها لنا سعد الله بشكل عفوي تتداخل مع جنس السيرة الذاتية والذي يتسم بنفس الملامح.

واستخلاصاً لما سبق نتوصل إلى:

- السيرة الذاتية وأدب الرحلات كلاهما فن نثري سردي يعتمدان على تصوير المشاهد وتدوينها
- تقاطع طرق التدوين في السير وأدب الرحلات كونهما يعتمدان على نظام الكتابة اليومية للأحداث
- أدب الرحلات شكل من أشكال السير الذاتية بمعنى أنها جزء من السيرة
- تركيز السيرة وأدب الرحلات على الزمان والمكان في تصوير الأحداث مع إضفاء الرأي الشخصي.

وهذه بعض النماذج عن الرحلات حديثاً:

_مازن مطبقاني "رحلاتي إلى مشرق الشمس".

_مولانا رفيع الدين المراد ابادي "الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية".

_محمد لبيب البنتنوني "رحلة الأندلس".

ثالثاً: أنواع أخرى من السيرة:

توجد أنواع أخرى من السيرة المتداولة حديثاً منها:

(1) أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص204.

1 _**السيرة الذاتية الشعرية:** «وهي سرد نثري يتولّى فيه الشاعر تدوين سيرته الشعرية فقط. تاريخاً ومكاناً وحادثة، وتكون هذه السيرة عادة في مرحلة التطور الحيوي والشعري للشاعر، ليتمكن من الوقوف على المحطات الغنية في تجربته الشعرية، فيكوِنَ صورة عن تاريخه الشعري وعن جغرافيته وموقعه في خارطة الشعرية وقد تأتي هذه السيرم بمسميات نذكر منها: (تجربتي الشعرية)، (قصتي مع الشعر)، (حياتي في الشعر)، (حكايتي مع الشعر)» [1]

2 _ **السيرة الذاتية الروائية:** «سرد نثري سير ذاتي يتوجه فيه الراوي إلى تقويم سيري لتجربته الروائية يشتمل على نثل حكايته مع الرواية والكتابة الروائية إلى القارئ ولا يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلاّ على يد روائي له حضور مؤثر ولافت في ميدان الإبداع الروائي»[2]

3 _**السيرة الذاتية النقدية:** وهي سرد نثري يقدم فيه الناقد نظريته ومنهجه وفكره النقدي على شكل عرض تاريخي تكويني، مركزًا في ذلك على الجوانب العلمية والفكرية والثقافية بكل ما يتعلق بالعملية النقدية وخلفياتها، ومما لابد من الإشارة إليه أن أسلوب الكتابة يختلف كون النّص النقدي يختلف كلياً عن هذا النوع من الكتابة، فَيُحتم عليه هذا النوع من الكتابة أسلوباً خاصاً فيه الرشاقة اللغوية والإنسيابية التعبيرية والجمالية والنفس الحكائي مايمتع القارئ ويجذبه على عكس الكتابة النقدية التي تتسم يالكثافة التعبيرية[3]

4 _**السيرة الذاتية القصصية:** تشترك هذه السيرة مع الأنقاع السابقة في كونها سردًا نثرياً سيرياً، يأتي في المرحلة التي يعتقد فيها صاحبها أنّه وصل إلى مرحلة من النضج والشهرة التي تسمحان له بكتابة تجربته وله فيها حرية إختيار الأسلوب الحكائي المناسب والذي يتوافق مع رؤيته السردية لسيرته[4]

وهذا ما يقودنا إلى أن التمازج والإختلاط الكبير بين هذه الأشكال وبين السيرة الذاتية أمرٌ صعبٌ يصل إلى الحد الذي يصعب وضع حدود فارقة بين هذه الأشكال، وقد وصلت صعوبة التفريق بينهم إلى قولهم أنّه جنس واحد، فالعلاقة بين تلك الأنواع وبين السيرة الذاتية علاقة معقدة إلى حد كبير وهذا مالاحظناه من خلال التعاريف السابقة. ولابد من التأكيد على أن هذه الأشكال السير ذاتية، تتمحور حول ذات الكاتب

(1) ينظر: محمد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص214.

(2) محمد صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، ص216.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص216.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص215.

فتعبر عن حياة المؤلف الذي يؤلف أو يؤرخ لنفسه، بمعنى أن ذات الكاتب ومحيطه هي المركز البؤري الذي تدور حوله الأشكال السالف ذكرها.

- **رابعاً:السيرة الذاتية في الأدب الجزائري:**

تعد السيرة الذاتية من أهم الفنون والأجناس الأدبية التي يستطيع المؤلف من خلالها أن يرسم ملامح من شخصيته وحياته وتجاربه محاولاً رسم صورة أوضح عن ذاته في ذهن القارئ بغية ربط الأواصر بينهما، وقد شهدت البلدان العربية والغربية قفزة نوعية في هذا الجنس الأدبي سواء على مستوى التأليف أو على مستوى المقروئية وإقبال النَّاس عليه، إلاّ أنّ مايهمنا في مقامنا هذا هو رصد هذه الحركة الإبداعية في الجزائر والتي تشهد نقصاً ومحدودية ومردّ هذا تأخر الجزائر في اللحاق بركب الحركة الأدبية التي عرفها الأدب العربي، وتستوقفنا حقيقة الوضع المرير الذي مرت به بلادنا جراء الإحتلال الفرنسي الذي طمس هويته ومعالمه والذي أثر بشكل كبير على الأدب الجزائري بشكل عام والسيرة الذاتية بشكل خاص.

وبالرغم من قلة الدراسات والقراءات لنصوص كتابة فن الذات في الأدب الجزائري سنحاول أن نميط اللثام عن الأدب السيري في الجزائر، والذي نكاد لا نجد له أثرًا واضحاً في الدراسات، وتنطوي وجهة النظر على أن أول شكل سيري عرف في الأدب الجزائري هو السيرة الذاتية "لرمضان حمود" بعنوان "الفتى" سنة 1929 والذي يعد من الأعمال المبكرة في تاريخ الأدب الجزائري الحديث والذي يتزامن مع كتاب الأيام لطه حسين وكان بالإمكان أن يكون لهذه السيرة شأن على المستوى العربي لو أن صاحبها عرف يتخلص من سرده التعليمي ويخوض التجربة من زاوية توسيع دائرته الأدبية وإبرامه لميثاق الكتابة[1]

ويمكن القول إن هذا العمل من أقدم ماتوصل إليه البحث في الأدب السيري الجزائري، مما لايدع مجالاً للشك في أن هذا العمل ورغم النقائص التي تعتريه إلاّ أنّه يتقاطع بشكل كبير مع فن السيرة الذاتية وبالإمكان عده من البواكير الأولى لكتابة الذات الجزائرية، ولا يفوتنا أن ننوه أن تاريخ السيرة الذاتية لرمضان حمود (1929) كان إبان فترة الإستعمار الفرنسي في الجزائر.

(1) عيسى بخيتي: عبد الملك مرتاض رائد السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، مجلة اللغة و الإتصال، وهران، المجلد10، العدد 16، 2014، ص145.

ولقد تلا هذا العمل السيري العديد من الكتابات، وآختلفت أسباب الكتابة مابين التدوين على سبيل الذكر إلاّ أن الملاحظ على هذه الأعمال أنّها لا ترقى إلى مستوى فن السيرة الذاتية وحري بنا التطرق إلى بعض هذه الكتابات ومن هذه الأعمال نذكر:

- «ذكريات من بعيد» للأديب القاص "عبد المجيد الشافعي" نشرها بجريدة العبقرية العدد 02 السنة الأولى غرة رجب 1366هـ، وقد ركز فيها كاتبها على ذكريات طفولته في مسقط رأسه بتلمسان، وحديثه عن دراسته وشغبه في بيت عائلته وهذه المحاولة لم ترق إلى مستوى الجنس السيري كما أنها لا تبتعد عن تصنيفه.
- محاولة البشير الإبراهيمي سنة 1952، حيث بعث ببطاقة فنية لنشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد انتخابه عضوًا من أعضائها، وقد بدت فيه فيه هذه الترجمة بعض الملامح السيرية وهي منشورة في مجلة الثقافة العدد 87 العدد الخاص بالبشير الإبراهيمي[1]

على الرغم من أن هذه السير تختلف إلى حد ما مع مفهوم الأدب السيري فإنَّها تحمل من السمات والمقومات ما يسمح بإدراجها ضمن هذا الجنس الأدبي، فمما لاشك فيه أن كُتاب هذه السير في هذه الفترة لم يتعرفوا على هذا الفن بركائزه كما هو عليه الآن، أضف إلى ذلك أنهم لم يدونوها كأعمال أدبية كاملة بل كانت مجرد مقالات تعريفية في مجموعة من المجلات والجرائد.

ومن الأعمال السيرية القريبة العهد بنا العمل الأخير لـ:

- عمار بلحسن "يوميات الوجع" وهي مقتطفات سيرية تحاكي يوميات مريض يائس يستأنس بالكتابة عن المعاناة والأنين كان ذلك العمل سنة 1993 قبل أن يغادر إلى دار البقاء. [2]

بعض الأسماء الجزائرية وكتابتهم السيرية:

لقد أصبح للسيرة الذاتية مكانة هامة في الأدب الجزائري خاصة في العصر الحديث، نظرًا للتطور التدريجي الذي أدى إلى ظهور فنون وأشكال في السير، سهلت فيه تدوين السير، فشاع هذا الفن الأدبي في الأدب الجزائري.

(1) عيسى بخيتي: عبد الملك مرتاض رائد السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، ص151.
(2) المرجع نفسه، ص151.

وفي هذا الصدد نجد الأمير عبد القادر الجزائري في سيرته مذكرات الأمير عبد القادر (1849) والتي أملاها على أحد أصهاره (ابن التهامي) وهو في السجن، « وتكونت السيرة من حوالي 162 مبحثاً كانت المباحث ذات العلاقة بالسيرة حسب منطلق السرد والسياق الإجتماعي والتاريخي والسياسي 86 مبحثاً وعدد المباحث الميثانصية كان عددها حوالي 76 مبحث»[1] وقد تناول في المباحث السيرية نسبه وكفاحه، والجدير بالذكر أنّ الأمير عبد القادر لم يكتب سيرته للمتعة الأدبية إنّما كتبها «بهدف الدفاع رد الشبهات وتفنيد الإتهامات، فهي مرافعة يدافع بها صاحب السيرة عن نفسه»[2] ومن خصائص سيرته:

_غص النّص السيري في سيرة الأمير الذاتية باستشهادات أغلبها تمثل البيئة الدينية والعقائدية للأمير، فترى الدين من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يمتلئ بها النّص السيري كما نجد الكثير من الآثار الدينية وأقوال السلف الكرام.

_ «التعبير بضمير الغائب في المذكرات مما يعطي الإنطباع في الإشتراك في كتابة السيرة بين الأمير ومن أمليت عليه إذ سمح له بإضافة بعض الأحداث ولا يستبعد أن يكون الكاتب الذي أمليت عليه هو صهره ابن التهامي الذي لم يفارقه في معاركه فهو حاضر وشاهد ويمكن أن يضيف ما نسيه الأمير أو غفل عنه»[3]

هذا فيما يخص السيرة الذاتية لدى الأمير عبد القادر والذي يتضح من خلالها العديد من الجوانب الخفية لديه بالإضافة إلى الميولات ومدى سعة ثقافته وعلمه، إلاّ أن الملاحظ في سيرته أنّها أغفلت الجانب الأدبي منه مركزةً على الجانب الكفاحي لديه.

كما نجد سيرة عبد الملك مرتاض الموسومة "بالحفر في تجاعيد الذاكرة" والذي حسب العديد من الباحثين والدارسين تعود له الريادة في الأدب السيري بالجزائر كفن قائم له ركائزه ومقوماته، وسنحاول في هذا الباب التعرف على البعض من سمات سيرته:

_الحفر في تجاعيد الذاكرة:

(1) عبد العزيز شويط: "معالم فن السيرة الأدبية الذاتية عند الأمير عبد القادر" دراسة في مذكراته (السيرة الذاتية) بالموازنة مع تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر لإبنه الأمير محمد، مجلة الصوتيات، جامعة البليدة، الجزائر، العدد 18، جانفي 2017، ص239.

(2) المرجع نفسه، ص241.

(3) المرجع نفسه، ص245.

وهي سيرة ذاتية لعبد الملك مرتاض، كتبها وقد تجاوز الستين من عمره جسد فيها عصارة تجاربه، والمميز في سيرته أنّها أنتجت معرفة جديدة عن وضع المجتمع الجزائري خلال فترة معينة كونّها تقوم على زمنين هما زمن الإستعمار والإستقلال إلاّ أنَ الزمن المهيمن هو زمن الإستعمار الفرنسي، فيعود بنا عبر عناوين جزئية مكتنزة بألق الطفولة، يستدعي فيها شخصية الطفل عبد الملك، راصدًا ذكرياته وأحلامه، وشاهدًا على حياة أسرته وبؤسها والظروف المستحيلة التي عاشها من فقر وتخلف وجهل واستغلال[1]

وقد عنيت هذه السيرة بطبيعة التكوين العلمي وكيفيته، «فعرض صاحبها على القارئ المكونات الثقافية التي صنعت تجربته وجعلته ملء السمع والبصر وصنعت منه شخصية مهمة في وسطنا الثقافي والأدبي بالجزائر»[2]

من خلال ماسبق ذكره يتبين لنا جلياً أن السيرة الذاتية لعبد الملك مرتاض في شكلها العام تتضمن رحلة حياته الشخصية بداية بالطفولة إمتدادً إلى ستينيات عمره وهذا ما يتمثل لنا خلالها.

ومن خصائص سيرته الذاتية نذكر:

_لا تشمل سيرة عبد الملك مرتاض على ميثاق سير ذاتي، كما تغيب منها المقدمة أو المدخل التوصيفي لمنهج الكتاب ورؤيته حول نوعية المؤلف وقيمته وجدواه، وظروف إنجازه

_ البطل لا يحمل أي إسم في البداية، والقارئ يعرفه بشكل ضمني[3]

_ إستعانته بملكة الخيال والوصف والتحليل في روايته للقصص والمشاهد المؤثرة والعميقة في شخصه

_ممارسته الرقابة الذاتية على سيرته[4]

_لم يلجأ إلى تضخيم الذات والسقوط في النرجسية إنّما قدم للقارئ إنساناً قريباً منه، من لحم ودمٍ يخطئ ويصيب فخلق لديه حالة من المعايشة الوجدانية والتعاطف في أحايين كثيرة

(1) ينظر: نور الدين سعيداني، فنية قراءة الذات في سيرة عبد الملك مرتاض، مجلة المدونة، المجلد08، العدد01، جامعة البليدة02، ص272،273.
(2) المرجع نفسه، ص275.
(3) المرجع نفسه، ص271.
(4) المرجع نفسه، ص276.

_تأريخه وتدوينه لسيرته في أسلوب طلي، عرف به حتى في دراساته الأكاديمية على ما فيه من أسجاع ومفعولات مطلقة وألفاظ حوشية أحياناً غالباً ما تكون صعبة[1]

لقد وقفت بنا سيرة عبد الملك مرتاض على محطات تاريخية، عاشها الشعب الجزائري وصورها عبد الملك مرتاض من خلال مدونته سيرية، ليصور لنا المجتمع الجزائري وحالة البؤس والتدني التي يعيشها (بسبب إنتشار بعض المعتقدات الخاطئة كالتبرك بالأولياء والأضرحة) وتكون بذلك حفرًا في التاريخ.

وقد توالت الأعمال السيرية في شكل متسلسل ومتقارب متمثلة في أعمال كل من:

- عبد الجليل مرتاض "مابقي من نعومة أظافر الذاكرة" سنة 2006، وقد نشر بدار الغرب وهران
- قدور عما إبراهيم "لقايا من عهود الزمن وجذور المحن" سنة 2007، نشر بديوان المطبوعات الجامعية المطبعة الجهوبة لوهران
- المهدي غوتي "رحلة المصير" مذمرات مجاهد سنة 2007 نشرته دار الأديب وهي عبارة عن مذكرات يرويها صاحبها بشكل سيري واضطراب كبير بينها وبين المذكرات[2]
- حديث القبرة لسعدي صباح سنة 2020، نشرته دار خيال للنشر والترجمة برج بوعريرج.

كما نجد أن كتابات الذات دخلت إهتمام المرأة الجزائرية، ويُعدُ هذا النوع من الكتابات النسوية حديث النشأة نوعاً ما، إذ تعود بداياته للقرن العشرين، فنجد قلة وشحاً في السير الذاتية النسائية العربية بشكل عام والجزائرية بشكل خاص، ونرجح السبب في ذلك طبيعة البيئة التي تعيش فيها المرأة التي تتسم بنوع من العادات والقيم المجتمعية التي تتحفظ على هذا النوع من الأعمال، ومن أهم الكاتبات اللواتي دون سيرتهن نجد:

_ زهور ونيسي "عبر الزهور والأشواك" مسار امرأة، عن دار القصبة 2012 والذي يمثل أول الأعمال السيرية النسوية الجزائرية[3]

_ ربيعة جلطي في "سيرة شغف"، عن دار الحبر، الجزائر سنة 2017.

(1) المرجع نفسه، ص277.
(2) عيسى بخيتي: عبد الملك مرتاض رائد السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، ص151.
(3) المرجع نفسه: ص151.

ومن خلال ما تم ذكره سابقاً نستنتج أن أغلب السير الذاتية في الجزائر تحمل مقومات السير الحديثة، كما أنها عالجت عدة موضوعات منها الوطن والبنية العائلية.

الفصل الثاني: دراسة تطبيقية في كتاب "حياتي"

مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله

مقومات السيرة الذاتية في كتاب حياتي:

أولاً: الميثاق السير ذاتي:

إنّ الميثاق من أهم المقومات الأساسية التي تبنى عليها السير، إذ يمثل عقدًا وعهدًا بين كاتب السيرة الذاتية وبين القارئ، وتكمن أهميته في كونّه يحدد هوية النّص السيري وهو الحد الفاصل بين الأجناس الأدبية الأخرى. ونعني بمصطلح الميثاق «العقد الذي يبرمه المترجم بذاته لينص من خلاله على أن وقائع النص وقائع حقيقية، لا تحمل محملاً تخيلياً، لأنّها متصلة بشخصيته كأشد ما يكون الإتصال»[1] فحضور الميثاق يستلزم بالضرورة من المؤلف سرد وقائع حقيقية في نصه، بعيدًا عن الخيال، وهذا هو الشرط الأهم في هذه الكتابة الإبداعية.

على أنّ فيليب لوجون يميز بين مصطلحي الميثاق والعقد، فيقول في ذلك «والميثاق يثير صورًا خرافية، مثل "المواثيق مع المواثيق مع الشيطان" التس نغمس فيها ريشتنا في دمنا من أجل بيع الروح، في حين يحيل العقد على دلالة أكثر نثرية. إن مصطلح عقد يستتبع ويفترض وجود قواعد صريحة، ثابتة ومعترف بها لإتفاق مشترك بين المؤلفين والقراء بحضور الكاتب الشرعي الذي يتم التوقيع عنده على نفس العقد وفي نفس الوقت. وهو أمر لا يشابه في شيء واقع الأدب»[2] وهناك أنواع للميثاق:

أ. الميثاق المرجعي: وهذا النوع خاص بفنون القول التي يتوخى الكاتب فيها الدقة العلمية والحقيقة التاريخية التي يمكن التحقق من صحتها بالرجوع إلى المصادر الأخرى أو تلك التي يحيل عليها الكاتب في النص إذ يعمل هذا الميثاق على تحديد حقل الواقع المراد تصويره كما يحدد كيفية ودرجة التشابه الذي يزعمه النّص بالواقع

ب. الميثاق الروائي: وهذا النوع من الميثاق عماده نفي التطابق بين إسم المؤلف على الغلاف وإسم الشخصية في النّص وسنده الإقرار بالطابع التخيلي للنص كأن يذكر في عنوان فرعي أن الكتاب رواية

(1) جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص14.

(2) فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ص12،13.

ج. الميثاق السير ذاتي: ويقوم هذا النوع من الميثاق على تلك العقدة التي يبرمها المؤلف مع القارئ لغاية التأكيد على التطابق بين المؤلف والبطل والرجوع بكل شيء إلى الإسم الشخصي المكتوب على الغلاف. (1)

أما عن طريقة الإعلان فتختلف من كاتب إلى آخر، بين من يعلمن ميثاقه وبين من يضمنه ويمكن لنا أن تبين ذلك من خلال:

المُعْلَّن: وذلك عندما يتطابق إسم (السارد، الشخصية) داخل السرد مع إسم المؤلف الموجود على غلاف الكتاب وفي الواقع.

الضمني: وهو على قسمين:

أ. يرجح بعض المؤلفين إلى عناوين لاتترك شكاً في أن الضمير النحوي الوارد في النص يعود إلى المؤلف كما نجد في (سيرتي الذاتية)، (قصة حياتي). وها مانجده في سيرة أبي القاسم سعد الله (حياتي)

ب. النوع الثاني: يظهر في تلك النصوص التي تجعل الراوي يتحدث إلى القارئ كا لو كان هو المؤلف نفسه حتى وإن لم يذكر إسمه. (2)

والقارئ لنص "السيرة الذاتية لأبي القاسم سعد الله مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله" يلحظ وجود إشارات على أنَّها سيرة ذاتية ويبرز ذلك من خلال:

1_ العنوان:

يعدّ العنوان المفتاح الذي يساعد القارئ الولوج إلى عالم النص وكشف أسراره، فمن خلاله يمكننا معرفة طبيعة العمل الذي بين أيدينا، فعادةً ماتحمل كتابات الذات كلمة سيرة ذاتية في العنوان الرئيسي، ونلاحظ من خلال الغلاف الأمامي للمدونة أن الكاتب لم يثبث عليه كلمة سيرة إنّما أرفق العنوان الأساسي (حياتي) بعنوان فرعي هو _مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله_ مما يدل على أنَّ يحكي سيرة سعد الله الذاتية.

(1) ينظر: خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م، ص22،21،20.
(2) ينظر: خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، ص22.

والمتأمل في عنوان السيرة "حياتي _مذكرات أبي القاسم سعد الله" يلحظ للوهلة الأولى أن هذا الأخير أتى بصيغة مباشرة، فالقارئ عندما يكتشف العنوان لأول مرة يتضح له جلياً أنَّه سيرة ذاتية، ونتيجة لما سبق نستنج أن عنوان المدونة حقق جزءًا من الميثاق السير ذاتي.

2_ المقدمة:

تشكل المقدمة ثاني واجهة يلتقي بها القارئ بعد العنوان حيث نجد في المقدمة التي كتبها (أحمد سعد الله) أن هذه المدونة التي بين أيدينا تنتمي إلى أدب السيرة الذاتية متخذةً شكل مذكرات فالمقدمة من بين «العتبات النصية المهمة في توجيه القراءة فضلاً عن العنوان، إذ أنَّها تضم مجموعة من الثيمات التي تكشف عن مقصدية المبدع ونواياه ومراميه الأيديولوجية التي تمثل إشارات وموجهات أساسية تقود القارئ إلى فهم أشمل وأدق»[1] ومن أمثلة ذلك في المقدمة نجد:

«لقد وقعت على عاتقي كتابة مقدمة لمذكرات والدي العزيز رحمة الله عليه...فحياة الوالد كانت مليئة بتجارب وأحداث لا يسع المرء إدراكها إلاّ إذا طالع هذه المذكرات بعمق وتأن إنَّها تكشف للقارئ كيف تكونت شخصيته عبر مراحل حياته، بداية بنشأته وبيئته القاسية، ومرورًا برحلاته الدراسية التي انطلقت من تونس في جامعة الزيتونة إلى دار العلوم بمصر حيث تعزَزَ تكوينه الإسلامي العربي الأصيل. وبعد ذلك رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمواصلة دراسته العليا فحصل هناك على أعلى الدرجات العلمية وهي شهادة الدكتوراه ومن ثم عاد غانماً للوطن بنفس الطموح الذي غادر به موطنه»[2] وتبدو المقدمة شاملة ومشوقة، حيث تعكس لنا أهم المضامين التي يدور حولها الكتاب، والذي يسلط الضوء على رحلة أبي القاسم سعد الله ويكشف عن تكوين شخصيته عبر مختلف المراحل والتحديات التي واجهها. من البيئة القاسية، لنشأته، إلى رحلاته الدراسية في تونس ومصر، وحتى استكماله الدراسة العليا في الولايات المتحدة، فيتضح لنا كيف أنّها كانت رحلة حافلة بالتحصيل العلمي والتطور الشخصي.

إنّ مقدمة المذكرات تلقي الضوء على رحلة مثيرة وملهمة لحياة والده، وتشير إلى أهمية تأثيره وإسهاماته في مجالات الدراسة والعمل«سيجد القارئ نفسه يكتشف مسيرة كانت تأخذ زادها من أحداث الحقبة الزمنية التي مرت بها

(1) خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، ص55.

(2) أبو القاسم سعد الله، حياتي مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، د,ط، 2015، ص05.

الجزائر قبل وبعد الإستقلال وقد سعى صاحب المذكرات...لتبليغ رسالته شعرًا ونثرًا ونقدًا بناءً ودراسات أكاديمية»[1]

وإذا ما انتقلنا إلى تحليل المقدمة للكتاب نلاحظ مايلي:

_عمد كاتب المقدمة إلى استيضاح بعض الأمور المتعلقة بالنص ومحيطه، مع إعطاء إضاءات من شأنها أن تنير درب القارئ لفهم أعمق للنّص وليبين أنَّ والده قد كتب هذه المذكرات ونهل أحداثها من فترة الإحتلال ومابعد الإستقلال.

وهناك تكملة وجزءٌ تالي لهذه المذكرات يُغطى المرحلة التي عاد فيها من الولايات المتحدة إلى غاية آخر أيامه، إلاّ أن تكملة الكاتب لمشروع سيرته الذاتية بعد جزئها الأول لم تتم، فقد أعجلته المنية.

والملاحظ أنَّه لم يطرأ على المذكرات أي تعديل وقد وصلت إلينا كما أراد صاحبها دون تعديل أو حذف.

3_ الملحق:

ويقصد بملحق كتاب تلك الظاهرة النصية التي تكون فيها العلاقة بين نص لاحق...(أ) بنص سابق...(ب) بحيث يكون له مرجعاً ونموذجاً إذ لا وجود للنّص اللاحق دون السابق، أما عن أهميته ودوره في النَّص السيري فيكمن (فضلا عن التطابق والميثاق) في:

_ إحدى الطرق الذي يتم بموجبها تحديد النَّص السير ذاتي

_ وسيلة لمعرفة السيرة الذاتية الصحيحة الصادقة من السيرة الذاتية الكاذبة أو المزورة[2]

وقد احتوت الصفحات الأربعون الأخيرة من سيرة أبي القاسم سعد الله على ألبوم صور له ولشخصيات وأمكان تتعلق بالمحتوى الذي تناوله، في مراحل متنوع من حياته. وجاء ألبوم الصور بعنوان (ملحق الصور) مع ملاحظة توضيحية تحت كل صورة، والصور فيها تركيز على التنوع (صوره الشخصية، صور لأفراد من العائلة والأصدقاء، بطاقات شخصية، شهادات...الخ)، وتكمن أهمية هذه الصور في كونها تعمل على دعم الموقف

(1) المرجع نفسه، ص05.

(2) ينظر، خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، ص58.

السيرذاتي، وإبراز بعض الجوانب المهمة في الحياة الشخصية لسعد الله ومن الأسباب التي تجعل من ملحق الصور أمرًا مهماً:

ـ تعزيز فهم النّص، حيث إنَّه يتيح للقارئ رؤية الأحداث والأماكن والأشخاص المذكورين في النص وبالتالي يمكنه فهم السير بشكل أوضح وأعمق.

ـ جذب القارئ، وزيادة إهتمامه بالسيرة الذاتية من خلال الجانب البصري المقدم في النَّص.

ـ تقديم السيرة الذاتية بشكل متكامل وشامل إذ أن ملحق الصور يجعل هذه السيرة أكثر تميزًا وجاذبية.

ـ إبراز شخصية الكاتب وجعلها أكثر وضوحاً للقارئ، حيث يعمل على توثيق الشكل والمظهر للكاتب.

ثانياً: التطابق بين المؤلف والسارد وبطل السيرة:

تعد السيرة الذاتية من الأنواع التي تهتم بسرد حياة شخص معين، ومن المهم في هذا النوع من الأدب «أن يكون هناك تطابق الإسم بين المؤلف، كما يدرج عن طريق إسمه في الغلاف وسارد الحكي، والشخصية التي يتم الحديث عنها»[1] بداية يجب أن نحدد هذه الأطراف الثلاثة بشكل أوضح:

أ. المؤلف الحقيقي: هو الذي يقف وراء عمله بحكم وصف السيرة الذاتية.

ب. السارد: هوالمنبثق من الحاضر.

ج. الكائن السير ذاتي: هو الذي يعود إلى الشخصية الرئيسية وبطل السيرة. [2]

ومن المهم أن يتم التطابق بين هذه الأطراف الثلاثة، حتى يتمكن القارئ من الإندماج بشكل أفضل في قصة الحياة المروية «والبحث عن التطابق بين هذه الأركان الثلاثة في النص السير الذاتي الذي لا يخلو من بعض الإشكالات سواء كان ذلك على المستوى النظري إذ كان يعتقد البعض أن التأكيد على ضرورة تحقق التطابق يسهل إمكانية منح قاعدة نصية عامة للسيرة الذاتية أو على مستوى التطبيق الذي يدور حول شكل الضمير النحوي الموظف داخل النص السير ذاتي ولتفادي هذا الإشكال علينا أن نميز داخل مفهوم التطابق هذا بين

(1) فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ص35.

(2) ينظر:خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، ص11.

مقياسين مختلفين هما: مقياس الضمير النحوي الذي يعود على الشخص، ومقياس تطابق الأشخاص الذي يدلنا عليهم الضمير النحوي»[1]

إذن فمن الشروط التي تبنى وتؤسس عليها السير الذاتية هي: الضمير النحوي وتطابق الشخصيات، وسنحاول أن نسقط هذه الشروط والأسس على سيرة أبي القاسم سعد الله لنتبين حضورها من عدمه.

_الضمير:

غالباً مايكون صاحب السيرة هو الراوي، فهو يصف حياته وتجربته في الحياة في نص سردي لا يخلو حتماً من إستعمال الضمائر سواءً بصيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب «ولا شك أن النوع الأول يمثل الظاهرة الأسلوبية المهيمنة في هذا النوع من الأدب لكونّه يحيل على الذات مباشرة ويقلل المسافة الفاصلة بين السارد والشخصية المركزية، ويسمح للسارد من النوع السير ذاتي أن يتحدث باسمه الخاص أكثر مما يسمح للسارد المحكي لضمير الغائب وذلك بسبب تماهي السارد مع البطل»[2]

إذن فصاحب السيرة هو السارد لها بضمير المتكلم، وتفسيرًا لما تمَ ذكره نأخذ مثالاً على المستوى التطبيقي من سيرة "حياتي _مذكرات أبي القاسم سعد الله_" حيث يقول: «وهكذا فأنا أبو القاسم (بلقاسم) بن أحمد بن علي بن محمد بن سعد...» [3]

وفي سياق آخر: «أذكر أنني ارتكبت حادث سيارة فاتح سنة 1972، فانكسرت لي نفس اليد من جديد وأدخلوني مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة»[4]

فالكاتب يرتكز على الضمير الشخصي "أنا" ليصف تجربته الشخصية وحياته و"تَمَظْهُر ضمير المتكلم لا يعد أمرًا غريباً لأنَ السيرة الذاتية على نحو عام أدب قوامه (الأنا)، فهذا الضمير مصدر الكلام"[5] ونستدل من المدونة

(1) خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية ، ص11.
(2) المرجع نفسه، ص12.
(3) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص15.
(4) المصدر نفسه، ص54.
(5) جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص27.

بقوله «عندما بلغت الخامسة من عمري أدخلني أهلي جامع البدوع...ولا أذكر كيف سرتُ في الحفظ خلال السنوات الأولى فقد تبدل علينا المؤدب عدة مرات»[1]

إنَّ حضور هذا الضمير في الأعمال السيرية يلغي الحاجز الزمني الموجود بين زمن السرد وزمن السارد، كما أنَّهُ يجعل من الحكاية المسرودة مزيجاً مع روح المؤلف. [2]

- **ثالثاً الشخصيات:**

1_ أبو القاسم سعد الله:

وهي الشخصية التي تدور جميع الأحداث حولها، وهي شخصية إستثنائية تتميز بالعديد من الصفات والمميزات التي صاغت حياته وشكلته كشخصية مؤثرة وملهمة. ومن خلال مايرويه في سيرته يكشف للقارئ عن رحلته الشخصية والمهنية والعقبات التي واجهها وكيف تغلب عليها بإرادته وعزيمته.

و يظهر لنا من خلال سيرته بأنَّه يتحلى بصفات كثيرة كالإصرار والتحمل، حيث كان قادرًا على مواجهة التحديات والصعاب بقوة إرادته وقدرته على التحمل، وتجلى هذا الإصرار في رحلته العلمية والتعليمية حيث حقق أعلى المستويات العلمية وحصل على شهادة الدكتوراه في الولايات المتحدة الأمريكية. وأيضاً يتميز أبو القاسم سعد الله بحبه للمعرفة والتعلم، حيث كان متواصل الإطلاع والإهتمام بتوسيع آفاقه العلمية. كان يسعى جاهدًا لاكتساب المزيد من المعرفة في مختلف المجالات وذلك من خلال الدراسة والبحث العلمي والتفاعل مع العلماء والمفكرين. بالإضافة إلى ذلك يتميز أبو القاسم سعد الله بروح العطاء والمساهمة في المجتمع. لم يكتفِ بتحقيق نجاحاته الشخصية والعلمية فحسب، بل سعى لتعميم الفائدة والمساهمة في تنمية المجتمع من خلال مشاركة معرفته وتجاربه مع الآخرين. كما تتجلى في شخصية أبو القاسم سعد الله أيضاً التواضع والأخلاق العالية. على الرغم من إنجازاته العلمية والمهنية البارزة، يظل متواضعاً ومتسامحاً مع الآخرين.

2_ شخصية الأب:

صورته السيرة بالآمر الناهي في العائلة وصاحب السلطة ولا تسير الأمور إلاّ بعد طلب إذنه وموافقته عليها ويقول سعد الله في ذلك: «والأب هو سيد الدار وإذا دخل الدار سكن وسكت الجميع وإذا قال فقوله أمر، ننام

(1) أبو القاسم سعد الله، ص 58.

(2) ينظر: خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، ص12.

جميعاً في وقت واحد أيضاً نساء ورجالاً، كبارًا وصغارًا...وإذا غضب فإنَّه قد يضرب أو ينهر أحد أبنائه حتى أمام زوجته وذريته»[1] ويظهر لنا جلياً كيف أن شخصية الأب تمتاز بالشدة والتسلّط والمحافظة على التقاليد، ولعل ذلك يرجع إلى محاولة منه في المحافظة على لَم شمل العائلة إضافةً إلى طبيعة حياتهم والتي تغلب عليها الصرامة والحدة. وقد قدم لنا سعد الله بعض المواصفات الجسمية للأب وللوسط الذي نشأ فيه إذ يقول في ذلك: «1894 بقمار، وعاش طفولته بين العمل مع والده وإخوته في الفلاحة، مع التردد على جامع الحي لحفظ القرآن والإستماع إلى درس العلم والإصلاح. وإذا رأيته رأيت رجلاً متوسط الطول قمحي البشرة، قرمزي العينين مستطيل الوجه، له جبهة عريضة عالية وأنف عربي مستقيم ومنذ عرفته كانت له لحية قصيرة وشارب. جاء إلى الدنيا وقد أصبح والده موفور المعاش فكان أقل إخوته شقاء بالحياة وربما كان إخوته يعطفون عليه بعض الشيء بإعتباره أصغرهم سناً»[2] وهذه هي أهم الصفات التي ذكرها الكاتب عن والده والتي تميزه ومن النقاط التي ذكرها عن والده كذلك في صفحات متفرقة من الكتاب:

- تزوجه باكرًا وتحمله للمسؤولية (تزوج وهو لم يبلغ سن 18)
- تزوج من ثلاثة نساء[3]
- تشجيعه له وتحفيزه في طلب العلم، إذ أنّه كان يفخر به كونه يطلب العلم وجعله وقفاً للعلم ويقول في ذلك «...فأصبح فخورًا بي وكان يقول لي دائماً لقد سبلتك في سبيل العلم»[4]

وبناءً على ماتم ذكره سابقاً يتبين لنا كيف أن شخصية الأب قد تأثرت ببعض العوامل الخارجية التي جعلت منه شخصية صارمة إلى حد ما إلاّ أنها رغم ذلك شجعت على العلم والتعلم وحرصت على إبنها سعد الله في طلبه العلم أيما حرص، وهذا عامل مساعد ومهم في تكوين شيخ المؤرخين.

(1) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 45.
(2) المصدر نفسه، ص20.
(3) المصدر نفسه، ص45.
(4) ينظر: المصدر نفسه، ص20.

3_ شخصية الأم:

وهي الزوجة الثالثة لوالده يقول عنها "والدتي إذن هي العبيدية إبنة الأخضر بن مبارك بن سالم. وأمها هي جدتي الزهرة (الزهراء) إبنة مصطفى بن الحاج صالح...وترجع أسرة الوالدة إلى عرش قوي من عروش قمار الأوائل أيضاً وهو عرش أولاد بوعافية" [1]

وقد كان للأم دورٌ كبير وفعال في تشجيع إبنها على طلب العلم؛ إذ إنها كانت تقوم بالأعمال الموكلة إليه بدلاً عنه حتى يتسنى له التفرغ للدراسة وطلب العلم ونلحظ حب الأم للعلم من خلال القصة التي يرويها الكاتب على لسان أمه إذ يقول "وكانت دائما تروي لي قصة عاشتها بشأني وهي أنَّها رأت ليلة السابع والعشرين من رمضان...أضواء باهرة تغطي حوشنا وتمتد حيث يمتد البصر فأسرعت وهي مندهشة طامعة لتتضرع إلى الله أن يفتح على إبنها بالعلم الشريف أي القرآن الكريم" [2] وقد تأثر سعد الله بهذه القصة إذ يرى أنَّه مسخر لطلب العلم وأنَّ القدر يدفعه لذلك.

4_ شخصية الجد (جد الأب) :

كان شخصاً ميسورًا، له من البساتين والنخيل والفرس الفارهة المزينة بالعليقة وجميع علامات الفروسية والرفاه إلاَّ أنَّه أضاع ما يملك، ما أدى إلى خروجه من قمار غاضباً وقد أقسم ألا يعود إليها أبدًا، وكان له ذلك إلى أن توفي في منفاه الإختياري سنة 1850[3]

5_ الجد: (جد أبو القاسم سعد الله):

الجد علي، في طفولته يتيماً بائساً إلى أن إستقام حاله وبنى أسرته بعصامية، لم يعرف نعومة الحياة في كنف العائلة، وعندما اشتد عوده إشتغل جزارًا في المذبح العمومي للبلد، وقد إعتمد على نفسه وعلى قوة بدنه وتجاربه القاسية في الحياة.

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص21.
(2) المصدر نفسه، ص60.
(3) ينظر:المصدر نفسه، ص16.

وقد أورد الكاتب بعض الصفات الفيزيولوجية له في قوله أنَّه كان قوي البنية وقد أشار كذلك إلى أن جده رغم عدم تعلمه إلاَّ أنه تدارك ما فاته هو في أبنائه فأدخلهم جامع البلدة لحفظ القرآن الكريم، بالرغم من حاجته إلى معونتهم.[1]

6_ الأجداد من جهة الأم:

يقول عنهم «كان أجدادي من جهة الأم يتعاطون التجارة مع الجريد ومع بسكرة عاصمة الزيبان، وكانوا أصحاب ثروة وجاه، وهم معروفون ببياض البشرة وطول القامة. وقد أصبحوا بعد العمل بنظام الألقاب سنة 1934 يعرفون بلقب (هالي) بينما كان إسمهم التقليدي بين النَّاس (أولاد سالم الباي من عرش أولاد بوعافية»[2].

7_ الإخوة:

له اثنا عشرة أخاً وأختاً مابين أشقاء وإخوة له، على أن السيرة لم تقف عند هؤلاء الاخوة بالتفصيل.

8_ الزوجة:

لا نكاد نجد حضورًا لافتاً للزوجة في السيرة، ولعل ذلك يرجع إلى التكوين المحافظ للكاتب ورغبة منه في أن يبقي خصوصياته بعيدًا عن فضول القارئ ويصفها بقوله: «وقد وفقني الله بإختيار رفيقة حياتي وهي الحرة الشريفة حفصة بن سالم، من أعيان وأشراف مدينة بوسعادة، وكان ذلك سنة 1969»[3]

9_ الأولاد:

لم يشر إلى أولاده في سيرته، ولعل السبب في ذلك أنَّه أجلّها إلى الجزء الثاني أو أنَّه أراد التكتم عنها.

- **رابعاً الأحداث:**

تعد الأحداث ركناً أساسياً من أركان السيرة الذاتية، فالأحداث قوام ومُحرك هذا النوع من الأدب، فمن المعلوم أنَّ السيرة سردٌ لأحداث ووقائع عاشها الكاتب وعاصرها، فكل حدث من هذه الأحداث تأثيره ودوره في بناء

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 17، 18.
(2) المصدر نفسه، ص21.
(3) المصدر نفسه، حياتي، ص379.

شخصية السارد السيري، وقد شكلت الأحداث والوقائع التي مر بها أبو القاسم سعد الله المادة الخام لسيرته الذاتية:

1. مرحلة الطفولة:

إنَّ مرحلة الطفولة من المراحل الحياتية الحاسمة في تشكيل الشخصية والهوية الفردية. فهي فترة النمو والتطور الأولي في حياة الإنسان، حيث يتشكل الطفل بصورة أساسية تحت تأثير البيئة والتجارب الأولى التي يمر بها. وفي سياق الأدب السيري يتم استكشاف هذه المرحلة الهامة من خلال سرد قصص الحياة والتجارب الشخصية للفرد وخاصة الأحداث والتجارب التي تكون أثرًا في تشكيل شخصيته ورؤيته للعالم، كما تعدُ مرحلة الطفولة في الأدب السيري فرصةً لإستكشاف مجموعة متنوعة من القضايا والمواضيع التي تتعلق بتجارب الفرد الشخصية في هذه المرحلة، مثل النشأة العائلية، تجارب اللعب والإستكشاف، أعمال الشغب التي كان يقوم بها، والتحديات والصعوبات التي قد تواجه الطفل في هذه المرحلة.

من الأحداث التي ذكرها أبو القاسم سعد الله عن طفولته نجد:

_ولادته: إذا ما تتبعنا أحداث السيرة الذاتية "لأبي القاسم سعد الله" نجدها تبدأ من ولادته والتي توافق إنتقال عائلته من بلدة قمار إلى سكنى البدوع، وقد وجدنا له حديثاً يذكر فيه سنة ميلاده مع مراد وزناجي إذ يقول: «أنا من مواليد (حوالي) سنة 1930، وأقول حوالي لأنَّه آنذاك لم يكن هناك مايعرف حالياً (بالنقمة) أو النكوة لذلك فَهُمْ قدروا عمري تقديرًا»[1]

ويصف أبو القاسم سعد الله ولادته بقوله: «لا أجد خير ما أبدأ به هذا الفصل من جملة (في الهواء الطلق) ذلك أن الجو الذي عاصر ميلادي ونشأتي وتعلمي كان حرًا بكل مافي الحرية من معنى، حرية في الهواء، وحرية في التعبير وحرية في الإختيار، رغم وجود العوائق ووسائل الكبت العائلية والإجتماعية والسياسية»[2]، هذا فيما يخص الجو الخاص بميلاده ونشأته فعن علاقته بالمحيط العائلي يذكر أنَّهُ نشأ وسط بيئة تحوي العديد من الأفراد مابين إخوة وأشقاء (8 ذكور و3بنات) في أسرة محافظة ومتدينة، تمتاز بالبساطة والعفة والكفاف، كما كانت البلدة التي نشأ

(1) مراد وزناجي: حديث صريح مع أ.د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللّغة والتاريخ، منشورات الحبر، الجزائر، ط2، 2010، ص16.
(2) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص07.

فيها "البدوع" «عبارة عن مساحات شاسعة غارقة في الرمال البيضاء المتحركة والكثبان الرملية العالية. وليس هناك طريق معبدة تؤدي إليها وليس فيها جامع ولا سكان دائمون»[1] ويمكن القول إنَّ ظروف العيش فيها قاسية

ولا يُطاق «فلولا ماء البدوع الطيب، وظلال نخلاتها الوارفة وطيب هوائها، ماكان للعيش هناك من معنى بل ربما كان عيشاً لا يطاق»[2]

ومن الجدير بالذكر أن سعد الله لم يكثر الحديث عن طفولته ومن أهم النقاط التي ذكرها عن هذه المرحلة:

- دخوله الجامع وهو ابن خمس سنوات ويرد ذلك في قوله «عندما بلغت الخامسة من عمري أدخلني أهلي جامع البدوع الذي يبعد عن حوشنا حوالي نصف كلم وهم يتبركون ببدء حفظ القرآن في السنة الخامسة»[3]
- ومن النقاط الأخرى التي سردها عن طفولته هو سقوطه في البئر وهو ابن الخامسة عشرة ربيعًا والتي أثرت على يده اليمنى وأعوجت بسبب تلك الحادثة.

على الرغم من تداخل الأحداث فإنَّ القارئ لايجد شيئاً ذا بال عن أحداث الطفولة، مع أنَّها المحرك الأول لكتابة السيرة الذاتية. فأبو القاسم سعد الله لم يذكر الكثير عن السنوات الأولى من طفولته، وأغلب ما تطرق له عن شخصه جاء فيما يقارب السادسة عشرة من عمره.

2. أطوار التكوين العلمي:

كان نمط الحياة في بيئة أبي القاسم سعد الله يمجِّدُ العلم والثقافة والدين، حيث العلم والتعليم الديني يعدان من القيم الأساسية التي يحرص الأهل على تلقينها لأبنائهم، فعلى الرغم من ضيق الحال وشظف العيش وعدم تعلم الأم وتواضع تعليم الأب الذي اقتصر على حفظ بضع أجزاء من القرآن الكريم إلاَّ أنهما كانا سندًا قوياً إبنهما في دفعه لطلب العلم إذ إنّهما كرساه للعلم لما لقياه فيه من حب ونباهة وفهم وإقبال على التعلم.

وسنحاول في هذا الصدد التوقف عند أطوار التعليم والدراسة التي مر بها شيخ المؤرخين، وقبل كل هذا لابد أن ننوه بأن حفظ القرآن الكريم في المدرسة الدينية أو الجامع كان أمرًا لابد منه إذ أصبح من العادات والتقاليد

(1) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص08.
(2) المصدر نفسه، ص 09.
(3) المصدر نفسه، ص58.

المثوارثة في العوائل الجزائرية بشكل خاص والإسلامية بشكل أوسع، وتكمن أهمية هذه المرحلة في تشرب الطفل وتشبعه بالقيم الإسلامية والمنهل الأساسي لهذه القيم هو القرآن الكريم، ومن هذا منطلق فالمرحلة الأولى من تعليم أبي القاسم سعد الله كانت بدخوله إلى الجامع بالمسجد المحلي لقريته وهو ابن الخمس سنوات ويذكر ذلك في الفصل الأول للكتاب إذ يشير إلى عدم إستقرار معلمي القرآن الذي أدى إلى اضطراب حفظه، وَيُرْجِعُ فَضلَ حفظه القرآن للشيخ بلقاسم بن محمد الزبيري بعدما استقر الوضع بقدومه ويقوب في هذا الصدد «أما الشيخ الزبيري فقد اكتشفني وأحاطني برعايته عندما ظهرت له قابليتي للحفظ وأنني مختلف عن التلاميذ الآخرين وقد استمر في رعايتي والإهتمام بي إلى أن ختمت القرآن العظيم على يديه»[1] ونفهم من قوله هذا أن أمارات الفطنة والنباهة كانت بادية عليه، ويمكننا الجزم والأخذ بصحبة هذا القول، إذ سنتعرف لاحقاً كيف أن هذا الطفل سيغادر بلدته النائية الصغيرة طالباً للعلم.

وبتعرض الكاتب في الفصول اللاحقة إلى موضوع الدراسة بشكل أدق وأوضح بداية من الدراسة في تونس ثم القاهرة، فأمريكا ويمكن أن نذكرها بشكل مختصر ومبسط.

أ. الدراسة في تونس:

وهو يعادل فيما يعرف الآن بالطور المتوسط كون التعليم الإبتدائي آنذاك يقتضي معرفة القراءة والكتابة لا غير ويمتد هذا الطور ليشمل الثانوية وقد شهد إنتقال أبي القاسم سعد الله إلى الزيتونة (بتونس) في سن السادسة عشرة وقد كان نظام التعليم والمناهج نفسها ما عدا شيئ من التوسع في المرحلة التي تليها. وتطلعنا السيرة على مناهج التدريس وعلى المواد التي كان يتلقاها طالب العلم آنذاك ومنها:

- **الإنشاء**
- **الآداب العامة**
- **الأخلاق**
- **علوم التجويد**
- **قواعد التلاوة والترتيل والفقه**
- **الحساب**

(1) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص58.

وكل مرحلة من المراحل تضاف إليها مادة جديدة (كالجغرافيا، الهندسة...الخ)،وحصيلة السبع سنوات التي قضاها في تونس هي شهادة التحصيل والتي توافق شهادة البكلوريا وذلك سنة 1954. وقد شهدت مرحلة الدراسة في تونس تضحيةً في سبيل العلم، كُللت بالنجاح بعد مسار شاق وطويل حتى إذا جاءت النتيجة أثلجت الصدور وأراحت النفوس من عناء أثقل كاهلها، ونجده يعبر عن ذلك بقوله فيها: «ثم ظهرت نتائج الإمتحان وكنت من الناجحين بدرجة عالية. وقبل الحصول على الشهادة نفسها حصلت على مايسمونه "نظيرًا"...فبادرت بالإبراق إلى والدي أبشره بالنتيجة وهكذا أصبحت من حملة التحصيل أو الثانوية العامة بعد سبع سنوات من الغربة في تونس، وبذلك تحقق لوالدتي ما تمنته لإبنها من العلم الشريف»[1]

وفي قوله هذا نستشف الفرحة التي لم يجد بدًا من أن يتقاسمها ويشارك عائلته فيها، فصراعه من أجل طلب العلم بدأ يؤتي أُكله وبدأت طريقة يرتسم وهذا ما سيتوضح لنا أكثر في مراحله الدراسية المقبلة.

ـ ومن أهم العوامل التي ساهمت وتكوين شخصية أبي القاسم سعد الله في هذه المرحلة نذكر:

1) التفاعل مع الأحداث التي كانت تجري هناك
2) التربية الدينية والخلقية التيس تلقاها من جامع الزيتونة
3) التربية الوطنية التي اكتسبها بمشاركته نشاطات الكلية (1948)
4) التربية الأدبية، وذلك عن طريق إطلاعه على الأعمال الأدبية المشرقية
5) مساهتمه سنة 1952 في تأسيس رابطة القلم الجديدة مع أعضاء تونسيين والتي تعد تجربة مهمة في مساره الدراسي آنذاك.

لقد كان لتونس الأثر الكبير في قلب شيخ المؤرخين وتكوينه فاندماجه الكبير سواءً في الحركة الأدبية أو الحياة الإجتماعية والسياسية جعلا من فراقها أمرًا قاسياً على قلبه ويصف ذلك بقوله: «وكان وداع تونس من أشق اللحظات في حياتي، ذلك أن فراق المكان، مثل فراق الإنسان مؤثر ومؤلم. وكنت دائماً أردد قول المتنبي عن نفسه في هذا المقام:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا[2]»

(1) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص178.
(2) المصدر نفسه، ص180.

ولا نستعجبُ أثر تونس في قلبه فمن خلال قراءتنا للسيرة نلحظ أنَّه خصها بالذكر والتفصيل سواءً على مستوى الدراسة كطرائق ومناهج وأساتذة أو على مستوى الأوضاع العامة آنذاك، ونرجح في ذلك تقارب الوضع العام بين تونس والجزائر فكلاهما كانا تحت وطأة الإستعمار الفرنسي، أضف إلى ذلك الرابطة الأخوية بين سكان البلدين مما يجعل المغترب فردًا من المجتمع التونسي كما لايفوتنا أن ننوه بأنَّ الكثير من أهالي وادي سوف موجودون وحاضرون في تونس.

ب. الدراسة في مصر:

تعد هذه المرحلة من بين أقل المراحل التي تزودنا بمعلومات عن دراسته بمصر حيث جاءت في فصل يقتصر على أربعين صفحة على عكس الفصل السابق والذي تحدث فيه بإسهاب عن تونس وعن الدراسة فيها في الفصل الموالي.

ونبدأ الحديث عن دراسته في مصر بعد نيله لشهادة التحصيل سنة 1954 إذ كانت تراوده فكرة السفر إلى الشرق لإستكمال الدراسة إذ يقول: «كنت أطمح إلى مواصلة الدراسة والإستمرار في طلب العلم، الأمر الذي كنت أرغب فيه منذ الصغر، لم أكن أرى حدودًا تمنعني من مواصلة المشوار التعليمي، ولم تكن لدي شواغل أخرى أفكر فيها أو أعيش معها ماعدا الدراسة.هكذا وأنا في السنة الأخيرة من التعليم، فكرت في التوجه للدراسة في المشرق العربي لأن جمعية العلماء ومنذ سنة 1953، فتحت مجالاً لما أسمته "البعثات" إل المشرق»[1]

ورغم أن الحظ لم يحالفه ليكون طالباً في هذه البعثات، إلاَّ أنَّه لم يفقد إصراره وعزيمته، ليشتغل بعد ذلك في إحدى المدارس الإبتدائية لتوفير تكاليف السفر، ليكون له ذلك بعد جدٍ وكد ليسافر عبر ليبيا إلى القاهرة «وكان ذلك يوم جمعة في أكتوبر 1955. ونزلت بي الطائرة في مطار الماظة (مطار القاهرة الحربي القديم)» [2] ليلتقي بالشيخ الإبراهيمي الذي يسعى لتسجيله بالجامعة المصرية بعد تأخره في الإلتحاق بالتسجيلات وكان لهذا التأخير الأثر البليغ في سعد الله إذ بقي دون مال ودون عمل إذ أنّ المال الذي ادخره أنفقه على الرحلة وعلى الأيام التي قضاها في ليبيا ويقول عن ذلك: «...ولكن منحة الشيخ لم تأت إلاَّ في شهر مارس 1956 ولذلك عشت شتاءً صعباً جدًا في القاهرة نفسياً وإجتماعياً ودراسياً»[3]

(1) مراد وزناجي: حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله، ص31.
(2) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص221.
(3) المصدر نفسه، ص229.

بعد هذا العناء يُقبلُ في دار العلوم وذلك عن طريق مسابقة للدخول والتي كانت تضُم لجنة مكونة من عمر الدسوقي والذي كان صاحب القرار، ورغم تأخر اختبار القبول بكلية دار العلوم وفوات نصيب كبير من الدراسة والتي تبدأ عادة في شهر أكتوبر، فسرعان ما إندمج في النظام الدراسي وشارك في الإمتحان الأول وربما يرجع ذلك إلى كون مواد الدراسة في السنة الاولى كلها تقريباً درسها بعمق في جامع الزيتونة[1] ولسهولة الدراسة إهتم بالنشاط الخارجي أكثر من إهتمامه بمراجعة وحفظ مواد الدراسة فكان له أن جمع مادة رسالة القاهرة إلى البصائر والشروع في تدوين يومياته منذ فبراير 1956، والاشتراك في الحركة الطلابية الجزائرية.

_التردد على مركز جمعية العلماء ومكتب تحرير المغرب العربي للقاء أعضاء جبهة التحرير أو سماع أخبار الجزائر، أو لقاء وجوه جديدة وقراءة بعض الصحف.

_ التردد على بعض مقرات الصحف والمجلات الأدبية ونوادي الطلبة العرب. [2]

وقد نال شهادة الليسانس سنة 1959 بالجامعة نفسها ليسجل فيما بعد في الدراسات العليا في تخصص النقد الأدبي فأتم السنة الأولى وأنهى الرسالة في السنة الثانية حول شعر "محمد العيد آل خليفة" 1960_1961، دون مناقشتها وقد عهد بها لدى البشسر الإبراهيمي «وقد نشرها الشيخ الإبراهيمي لدى دار المعارف وهي أكبر دور النشر في مصر. أقول هذا الكلام حتى أؤكد أن كتاب محمد العيد آل خليفة هو في الأصل رسالة ماجستير لكنه لم يناقش»[3]

لقد ساهمت الفترة التي قضاها سعد الله بمصر في تبلور الوعي السياسي بإكتشافه لنفسه إذ يلخص عصارة تجربته فيها بقوله «لقد فتحت القاهرة أمامي منذ فاتح سنة 1956 عوالم كثيرة. كنت في تونس مكرساً جهدي لنيل شهادة التحصيل وكنت في الجزائر أكاد أختنق من رتابة الحياة وضيق المجال الأدبي والوجود الأجنبي.»[4]

«أما في القاهرة فكنت أكتشف نفسي يومياً. هنا الدراسة والصحافة والأدب والصراع السياسي والنشاط الإجتماعي، وهنا الإيديولوجيات المتناقضة من الوطنية الجزائرية إلى الإشتراكية العربية إلى حركة الإخوان المسلمين إلى تعاليم حزب البحث إلى الناصرية إلى الشيوعية»[1]

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص234.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص235، 236.

(3) مراد وزناجي: "حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله"، ص82.

(4) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص236.

وتنطوي وجهة النظر هنا بأنّه لا مجال للمقارنة بما كان يعيشه في تونس والجزائر، فمصر هي التي فتحت عينيه على عوالم كثيرة لم يسبق له العهد بها في الجزائر وتونس، فكما نعلم أن مصر حاضنة الثقافات والإديولوجيات، لكن يجب الأخذ في الحسبان أن الدراسة بتونس قد آتت ثمارها في مصر، إذ أن الزاد المعرفي الذي حمله من هناك جعل من الدراسة في مصر أمرًا هيناً، فكان له الإنفتاح على أمور أخرى أَجَدّ، فشارك وانخرط في النشاطات والندوات الأدبية والشعرية، كما شرع في هذه المرحلة بالذات في تدوين يومياته والتي نشرها في مجلد من ستة أجزاء جاء بعنوان "مسار قلم".

ج. دراسته في أمريكا:

بعد الزيتونة ودار العلوم بمصر يشد الرحال لأمريكا سنة 1960 وقد جاء سرده لهذه المرحلة مطولاً في الفصل الرابع والأخير من الكتاب، وتبدأ هذه الرحلة بقبول طلب المنحة المقدم إلى وزارة الثقافة الجزائرية آنذاك، ليبدأ بعدها إجراءات السفر حيث سافر بجواز سفر تونسي كون الجزائر لم يكن معترفاً بحكومتها المؤقته من قبل الولايات المتحدة الأمركية آنذاك، ورغم العراقيل التي واجهها أثناء طلبه للمنحة الدراسية، إلاّ أنَّه حصل في الأخير على مراده وسافر إلى أمريكا وكله حزم وعزم، فيسجل بجامعة مينيسوتا بقسم الآداب تخصص الدراسات الأمريكية وهذا كان خيارًا أولياً فبعد الدراسة لعدة أسابيع في هذا التخصص يقرر التحول إلى قسم التاريخ والعلوم السياسية مواصلاً دراسته إلى أن يتحصل على شهادة الدكتوراه يوم 20 سبتمبر 1965 تحت إشراف البروفيسور هارولد دوينس "حول الحركة الوطنية الجزائرية"، وكان لإختيار أبي القاسم سعد الله لهذا الموضوع عدة أسباب نذكرها كالتالي:

_ظروف الجزائر وثورتها وبحثها عن الهوية التاريخية.

_دراسته للحركات القومية في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر منذ إنتشار الفكرة القومية نفسها مع الثورة الفرنسية التي نقلتها إلى وسط وشرق أوروبا ودراسته للحركات الوطنية في أندونسيا والهند وتركيا واليلاد العربية

(1) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص236.

_الجهل بتاريخ الجزائر، وذلك راجع إلى أن المناهج الدراسية آنذاك لم تتطرق إليه والمعلومات التي يعرفها لا تتعدوى كونها معلومات مستقلة من كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وتاريخ الجزائر للميلي وموجز الجزائر للكعاك[1]

ويظهلا لنا جلياً من خلال ما تم ذكره سابقاً الميل التاريخي لشيخ المؤرخين، إذ يمكن أن نعد رسالته هاته منعطفاً مهما لنزوعه إلى الكتابى التاريخية الوطنية، ومحاولة جادة وفعالة في التقصي لتاريخ الجزائر.

ومما يلاحظ على سعد الله خلال هذه الفترة من حياته، إبتعاده نوعاً ما عن الشعر؛ إذ لا يذكر هذا في سيرته ونرجح السبب في ذلك إلى الصعوبة التي واجهها فاللغة واختلاف البيئة والضغط الدراسي جعلاه يبتعد قليلاً ونلحظ كذلك تفيرًا في ميولاته نحو الكتابات التاريخية على ما يبدو لنا.

هذا فيما يخص كيفية إنتقاله إلى أمريكا، ويجب أن نشير من مقامنا هذا إلى أساتذته الذين ربطته وإياهم رابطة العلم التلمذة وقد بقيت العلاقات قائمة بعد ذلك بالمراسلة أو الحديث واللقاءات الإجتماعية ومنهم:

"توم جونم" الذي درس عليه أصول البحث العلمي، "ثيوفاني سافرو" درس عليه مادتي روسيا الحديثة والدولة العثمانية، "بيرتون شقاين" درسه تاريخ الهند، "رومني تيلر" درسه تاريخ الصين[2]....الخ والقائمة تطول في ذكر الأساتذة، وقد ظلت علاقته بأساتذته طيبة حتى بعد إنتهاء فترة دراسته وعمله هناك والتواصل بينهم ظل مستمرًا حتى بعد رحيله من أمريكا.

ومما لابد أن ننوه إليه في هذه الفترة أنّه بعد إستقرار الوضع الدراسي وانتظامه شارك سعد الله في بعض النشاطات خارج إطار الدراسة:

_انخراطه في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين وتعيينه المسؤول على الشؤون الثقافية والمشاركة في إدارة تحرير المجلة التي يصدر فرع "معرفة الجزائر"

_ المشاركة في مؤتمر اتحاد الطلبة العالمي والذي كان في إحدى ولايات الشرق الأمريكي.

_رئاسته لمنظمة الطلبة الإفرقيين في منيسوتا.

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص329.

(2) ينظر:المصدر نفسه، ص313.

ومن النشاطات المهمة التي قام بها هناك في أمريكا، التعريف بالثورة الجزائرية وأهدافها يقول: «...وقد قدمنا تقريرًا عن وضع الطالب الجزائري في العالم وفي الجزائر وزعنا بيانات، وحصلنا على دعم تمثل في منح وفي إستنكار الاستعمار والتنديد بالتعذيب والذي يخضع له إخواننا في سجون العدو، ودعم حق الجزائر في الحرية والاستقلال.» [1]

إذن لم يقتصر سعد الله على التحصيل الأكاديمي فقط، فقد سعى إلى التعريف بالجزائر وثورتها في الأوساط الطلابية والإجتماعية الأمريكية. فيظهر لنا جلياً مدى إرتباطه وتعلقه بوطنه حتى وإن كان بعيدًا، فالبعد بعد المسافات لا بعد الروح وهذا ما نتبينه من خلال ما اطلعنا عليه من سيرته.

- **خامساً: دراسة للعنوان:**

احتل العنوان مكان مهمة ومتميزة في الدراسات الأدبية والنقدية وحتى اللسانية، فكما هو معلوم عنه أنَّه من أهم من وأولى العتبات النصية التي لابد من المرور والوقوف عندها وتكمن أهمية هذا الأخير أنَّه يؤدي وظيفة انفعالية ومرجعية وانتبهاية وجمالية وميتالغوية. [2]

فالكاتب قبل وضعه للعنوان يحاول أن يختاره ملائماً مع طبيعة العمل الأدبي ومبسطاً لها في شكل يلفت القارئ والمتلقي له، وعليه يمكننا القول إن العنوان هو المرآة العاكسة لما يدور داخل النَّص الأدبي فهو الأداة التي تحدد هوية النَّص وتصفه وتوضح المحتوى الذي يحمله الكتاب.

بناءً على ذلك يتضح لنا أنَّ العنوان هو مفتاح النَّص وبدايته التي يتضح من خلالها مضمون النص وسنحاول أن نحلل عنوان السيرة انطلاقاً من مستويين هما المستوى النحوي والمستوى الدلالي.

المستوى النحوي:

جاء العنوان عبارة عن جملة إسمية متكونة من كلمة واحدة هي "حَيَاتِي" تقديرها _هذه حياتي_ ودلالة الجملة الإسمية هو الثباث الإستقرار لأنَّها خالية من فعل يدل على حدث أو حركة.

حياتي: خبر مرفوع بالضمة والياء ضمير مبني في محل جر مضاف إليه.

(1) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص316.

(2) ينظر: خليل شكري هياس، شارع الأميرات، ص26.

والضمير النحوي في العنوان "حياتي" يعود على سعد الله.

_المستوى الدلالي والوظيفي:

إنَّ أوَل مايلفت انتباهنا في عنوان هذه السيرة **"حياتي" _مذكرات أبي القاسم سعد الله** _أنَّه عنوان يتسم بالبساطة والبعد عن التعقيد، وقد كتب بخط عريض باللون الذهبي الذي يعبر عن الفخامة، ويعكس الإشراق والتألق.

ويتكون العنوان من كلمة واحدة "حياتي" يتبعها عنوان فرعي "مذكرات الدكتور أبي القاسم الله"، وخلال البحث في هذه المذكرة صادفنا عمل أدبي يحمل هذا العنوان وهو حياتي لأحمد أمين وهي كذلك سيرة ذاتية.

ويمكننا تحليل عنوان "حياتي" كالتالي:

- **حياتي**: يشير إلى الطابع الشخصي والذاتي للكتاب ويعني أن الكاتب يتحدث عن حياته الشخصية وقصته الخاصة بشكل مباشر.

العنوان الفرعي: مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله.

- **مذكرات**: تشير إلى النوع الأدبي، إذ تعد إحدى أنواع السير الذاتية وتدل على أنَّ المحتوى هو سرد لذكريات الكاتب وتجاربه.
- **الدكتور أبي القاسم سعد الله**: هي عبارة عن إسم مؤلف المذكرات ويزيد من قيمة العنوان بإظهار أنَّ الكاتب هو شخصية محدود ومعروفة.

و انطلاقاً مما سبق قوله واستنادًا إلى العنوان نحاول تقديم دلالة ورؤية حسب قصد الكاتب، وعليه نستنتج أنَ العنوان يحمل معاني ودلالات كالتالي:

- **الطابع الشخصي**: ويتجلى لنا من خلال كلمة حياتي والتي تعبر عن الطابع الشخصي للكتاب والتركيز على حياة الكاتب نفسه، فالكاتب يعبر عن الذات والهوية الشخصية للكتاب ويتضمن رؤية شخصية للأحداث التي يرويها.

- **الطابع الأدبي**: تعتبر كلمة "مذكرات" تعبيرًا عن الطابع الأدبي للكتاب، فالمذكرات تعد واحدة من أشهر أنواع الأدب الذاتي والتي تعبر عن التجارب الشخصية للكاتب، وبالتالي فإنها تساعد على نقل صورة واضحة لشخصية الكاتب وعالمه.
- **الطابع الذاتي**: يمكن تفسير عنوان الكتاب بالطابع الذاتي حيث إن الكتاب يتحدث عن تجارب وأحداث الكاتب وذكرياته الشخصية وبالتالي فإنَّ العنوان يعكس الطابع الذاتي للكتاب.

ويظهر لنا جلياً من خلال ماسبق أن العنوان "حياتي_مذكرات أبي القاسم سعد الله_" مناسب لمضمون النص، إذ أنَّه يمكن للمتلقي أن يفهم ويحدد محتوى النص والذي يتطابق ويتناسب معه بشدة.

إضافة إلى العنوان الرئيسي "حياتي _مذكرات أبي القاسم سعد_" هناك عناوين أخرى للفصول التي تم بها تشكيل السيرة وبنائها فوردت في أربعة فصول معنونة كالآتي:

- عنوان الفصل الأول: "في الهواء الطلق"

ويقصد به الحرية والتحرر من جميع القيود سواءً الإجتماعية، سياسية، العائلية....الخ[1] ويندرج تحت هذا الفصل عناوين فرعية هي: مولدي، الأصول، نسبي، الوالد والوالدة، الطرق الصوفية، غرس النخيل ورفع الرمال، فلاحة الدخان، اللباس، الأفراح، الحياة الجماعية، حديث السوق، شؤون عائلية، السقوط في البئر والكي، الخروج إلى الصحراء، الدخول إلى الجامع، أول حفل في العائلة، حفظ القرآن، اتصالي بالطلبة سنة 1946، الإستعداد للسفر إلى تونس 1947، السفر ولباسه، حافلات قمار. وهذه العناوين تمثل مجريات حياة سعد الله في تلك الفترة، ويتحدث في هذا الفصل عن ذكرياته الأولى في البدوع بمنطقة القورارة والتي تمثل مكان نشأته الأولى لينطلق فيما بعد في سرد الوقائع والعادات والطقوس التي كان أهل منطقته يحرصون عليها، ليتكفل هو بنقلها وإبراز خصوصيات مجتمعه التي تعبر عن ثقافتهم ومعتقداتهم.

- عنوان الفصل الثاني: في تونس 1947_1954.

وسمي بهذا الإسم لأنَّه فترة بقائه في تونس والتي تمتد من سنة 1947 إلى 1954 وتندرج تحت هذا الفصل عناوين فرعية هي: جامع القصر، سنة دراسة في الجامع الحفصي، فلسطين والشرق، الصيف الأول في تونس في الجامع اليوسفي، في الجامع المرادي، في مركز الآباء البيض، صيف مضطرب، الحبيب التونسي وشهاد

(1) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص07.

الأهلية، مطالعاتي في الكتب، الكتابة وقرض الشعر، في مدرسة ابن عبد الله....الخ وقد اتشمل على جميع مراحل تعلمه في تونس ومكوثه بها بداية من الجامع الحفصي إلى غاية مغادرته تونس.

- عنوان الفصل الثالث: في القاهرة المعزية 1955_1960.

في هذا الفصل ركز على رحلته العلمية إلى مصر وتندرج تحت هذا الفصل عناوين فرعية قليلة على عكس الفصول الأخرى وهي كالتالي: في القاهرة، عند الشيخ الإبراهيمي، الحركة الطلابية في مصر، مالك بن نبي، رسالة الشيخ العربي التبسي.

- عنوان الفصل الرابع: حياتي في أمريكا.

وفي هذا الفصل يلخص لنا رحلته العلمية إلى أمريكا بالإضافة إلى مختلف العوائق والصعاب التي واجهته ومختلف الأنشطة والممارسات التي كانت منتشرة في أمركا آنذاك ويمتد هذا الفصل إلى غاية رجوعه للجزائر سنة 1967.

- **سادساً: حدود الصدق والموضوعية:**

إنَّ الصدق والصراحة من مقومات بناء السيرة الذاتية الناجحة ويعد التزام الكاتب السيري بهما ضرورة ملحة، يتميز بهما السيرة عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى (كالقصة والرواية) وحضورهما يولد الثقة بين القارئ والكاتب كما يكتسب النص بهما قيمة تاريخية وإجتماعية فيصبح وثيقة يمكن الرجوع إليها لذلك على كاتب السيرة «أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعف عنصر الصدق في السيرة فإنَّها لا تسمى سيرة لأن الخيال قد يخرجها مخرجاً جديدًا يجعلها قصة منمقة ممتعة»[1] فالصدق في سرد الأحداث يقيد مخيلة الكاتب فتبقى الأحداث في إطارها الحقيقي وهذا أهم ما يميز السيرة.

ومن هنا نتساءل عن مدى قدرة التزام كاتب السيرة الذاتية بالصدق التام، والصراحة المطلقة في سيرته، وهنا يجيبنا إحسان عباس بقوله: «...والجواب على هذا التساؤل سهل لا يحتاج إلى كثير من التدقيق، فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية أمر نسبي، مهما يُخْلِصُ صاحبها في نقلها على حالها ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية محاولة لا أمرًا متحققاً»[2]

(1) إحسان عباس: فن السيرة، ص74.
(2) المرجع نفسه، ص113.

والحقُّ أنَ غياب الصدق التام في السير الذاتية عدا تلك الأحداث التي عجزت الذاكرة عن استدعائها أمر حتمي، ينسجم مع طبيعة الإنسان القابلة للنسيان كما يمكن أن تكون أمرًا متعمدًا من قبل الكاتب نفسه فالحديث عن بعض جوانب الحياة والأحداث الإجتماعية والسياسية التي مر بها الكاتب لا يعني أنها اشتملت على جميع مراحل حياته «فالإجتزاء والإنتقاء في مثل هذا الموقع أمر مسوغ ومعروف، إذ يستحيل نقل وقائع بكل مافيها من ثقل وركاكة، ومجانبة لا مسوغ لها في عالم الفن»[1]

فكاتب السيرة الذاتية يتجاوز حدود التصوير المجرد لحياته ونقلها بشكل عابر، فهو يضفي الروح الفنية والإبداعية التي تدفعه لإختيار اللحظات المناسبة للواقع الإجتماعي والتعاليم الدينية، فالكاتب يدرك تماماً تلك القيود المجتمعية والدينية وهذا الفهم يفرض عليه تسليط الضوء على جوانب معينة والإختيار الدقيق للأحداث حتى ينجح الكاتب في تجسيد رؤيته الفنية ونقل رسالته إلى القراء بطريقة فنية جميلة تلفت الإنتباه وتحقق المعايشة الوجدانية.

وقد تحرى أبو القاسم سعد الله في سيرته الصدق التاريخي، ونرجح السبب في ذلك إلى كونّه مؤرخاً فذًا فغلب عليه طبعه وأسلوب الكتابة التاريخية، ويصرح بهذا العرض التاريخي (ابنه) في مقدمة الكتاب بقوله «سيجد القارئ نفسه يكتشف مسيرة كانت دائماً تأخذ زادها من أحداث الحقبة الزمنية التي مرت بها الجزائر قبل وبعد الإستقلال»[2] فقد أراد سعد الله من سيرته أن تكون مرشدًا ودليلاً على تلك الفترة التي عاشتها الجزائر، بجميع أحداثها سلباً وإيجاباً.

كان أبو القاسم سعد الله صادقا وصريحاً في حديثه عن نفسه، حيث كشف عن الكثير من الذكريات بكل صدق وشفافية، وذلك من خلال الحديث على بعض التفصيلات الحياتية والعائلية التي عاشها، فتحدث عن نفسه وهو طفل صغير عاش حياةً مليئة بالبؤس والشقاء والحرمان.

وكان لجوء الكاتب إلى سرد هذه الأحداث والأخبار، ضرورة يتطلبها الصدق، وتستدعيها الصراحة، فعند الحديث عن ولادته في بداية سيرته يقول: «كان عام ميلادي هو العام الذي تحرر فيه أهلي من سكنى البلدة "قمار" وانتقلوا إلى سكنى "البدوع"»[3]، وتعنبر هذه الولادة الحقيقية "لأبي القاسم سعد الله" حيث أراد الكشف عن

(1) صلاح صالح: سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003، ص201.
(2) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص06.
(3) المصدر نفسه، ص07.

حقيقته بكل صدق وشفافية فهو لا يعلم تاريخ ميلاده على وجه التحديد إذ صرح في حديث له بأنَّه «من مواليد (حوالي) سنة 1930 وأقول حوالي لأنَّه آنذاك بم يكن هناك ما يعرف حالياً "بالنقمة" أو "النكوة"، لذلك فهم قدروا عمري تقديرًا»[1] وهو بهذا يحاول أن يبعد من ذهن المتلقي أنَّه يختلق هاته الأحداث إذ يكشف عن حقيقته بكل صراحة وصدق.

لقد كان أبو القاسم سعد الله صادقاً وصريحاً في حديثه عن بعض جوانب حياته، ونلمس صراحته في اعترفه بضعفه في بعض المواد في قوله: «ولكن تجربتي في الحياة والثقافة العامة والفقه والنحو والحساب كانت معدومة»[2] وهنا يتحدث إلينا بصدق وصراحة، في تواضع منه وإعتراف صادق بالنقص والتقصير.

وقد كانت هذه الصراحة صفةً ملازمة "لأبي القاسم سعد الله" وجزءًا من أخلاقه وشخصيته فمن صراحته إعترافه بتفاصيل صغيرة مرتيطة بحياته الخاصة كقوله: « لم أكن قد تعلمت تنظيف الفم بمعجون الأسنان. كنت في قمار أشرب من ماء البئر وآكل التمر، ثم أترك كل شيء للطبيعة ماعدا المضمضة عند الوضوء. ولا شك أن ذلك أدى إلى التسوس المبكر لبعض أسناني»[3]

ومن جوانب الصدق تعجبهُ حين اختير ضمن اتحاد الكتاب الجزاريين رغم انسحابه واعتذاره عن المنصب إلاَّ أنَّه وجد نفسه ضمن القائمة يقول: «استغربت من الخبر ومن تزويره، ثم تأكدت من ذلك حين صدرت الجرائد الصباحية بنفس القائمة.» [4] وهذا اعتراف صريح منه على التزوير والتزييف الذي يحدث في الجزائر وفي حق التاريخ إذ يتم تقديم تلك الأخبار الكاذبة على أنَّها حقائق مطلقة.

ولا شك أننا نُلفي في هذا النَّص السير ذاتي تحفظ "أبي القاسم سعد الله" وتكتمه في تقديم تفاصيل شاملة حول حياته إذ يبدو أنَّه انتقى بعض المحطات والأحداث وضرب صفحاً عن غيرها، ومن النقاط التي تحفظ على ذكرها نذكر:

_أغفل الكاتب تماماً ذِكر زلات طفولته، فلم يقدم أي تفاصيل حول الأخطاء التي ارتكبها كأي شخص في ميعة الصِّبا مع أنَّ هذه الزلات والتحديات الشخصية التي يواجهها الفرد في سن الطفولة تؤدي دورًا حاسماً في

(1) مراد وزناجي: حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، ص16.
(2) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص80.
(3) المصدر نفسه، ص91.
(4) المصدر نفسه، ص391.

تشكيل هويته ونموه الشخصي. وقد يكون إغفاله لها حفاظاً على صورة مثالية أو لتجنب استحضار ذكريات قاسية أو لأنَّه رأى أنها لا تضيف شيئا إلى سيرته.

_أغفل حياته الحميمة ولم يذكر مثلاً تفاصيل اختياره لشريك حياته أو ردود أفعال أهله، كما لم يشر إلى أولاده فيبدو أنَّه قد تجاهل الجانب العائلي الذي يشكل جوهرًا للتجربة الحياتية لأي فرد، وهذا التحفظ يجعل القارئ يفتقد إلى تمثّل صورة مستوعبة لأعضاء الأسرة ودورهم في حياة الكاتب وتأثيرهم على مساره الشخصي والمهني وبالتالي، يعجز القارئ عن تكوين إنطباع شامل عن كاتب كشخص (أب، زوج...).

_والواضح أيضاً أنَّ الكاتب قد تجاهل تماماً ذكر مغامراته العاطفية أو أي إعجاب قد يكون شعر به تجاه فتاة ما على عادة كتَّاب السير كطه حسين والعقاد وغيرهما. إذ يتجاهل الكاتب تلك اللحظات المثيرة والمهمة في حياته العاطفية ويتجنب الحديث عن تجاربه العاطفية أو أي قصص حب قد يكون عاشها. ولا نتبين نظرته إلى المرأة كمحرك ودافع في حياته الشخصية، ويبدو أن الكاتب قد اختار الحفاظ على الخصوصية في هذا الجانب، مما يجعل السيرة الذاتية تفتقر إلى التفصيل الذي يعزز فهمنا لمسار حياته العاطفية وتجاربه الشخصية التي خاضها ولعل كاتبنا أراد لسيرته أن تكون فكريَّة تترفع عن الخوض في التفاصيل الشخصية.

بوح الكاتب وصراحته، يُظهر لنا كيف أنَّه يتمسك بجوانب أخرى مميزة في حياته، معتبرًا إياها أشياء خاصة تستحق الكتمان والتحفظ. فهو أراد أن يحتفظ بها لنفسه حتى لا يطلع عليها غيره أو أنه لم ير أي جدوى أو متعة فنية في ذكرها، وهذا التحفظ يحيلنا على الشخصية الصارمة الطبع اوالجاد الذي ميَّز حياة هذا الأديب والمؤرخ الفذ.

- **سابعاً:صورة المجتمع في سيرة أبي القاسم سعد الله:**

يرمز الأدب إلى المرآة التي تعكس المجتمع وتكشف عن تركيبته الإجتماعية والثقافية والتاريخية. وتبرز السيرة الذاتية لأبي القاسم سعد الله هنا كنص أدبي ذي أهمية كبيرة في فهم صورة المجتمع الجزائري خلال اطّار زماني ومكاني معين.

عند التعمق في هذه السيرة، ينكشف لنا عالمٌ غني بالمفاهيم والتجارب الإنسانية، فهو يقدم لنا فهماً عميقاً للمجتمع الجزائري في حقبة زمنية معينة، مما يجعل منها قطعة أدبية وتاريخية استثنائية ترسم لنا صورة متكاملة ومعبرة عن تراث الجزائر وثقافتها وتاريخها، فيأخذنا الكاتب في رحلة شيقة إلى أعماق الذاكرة، متنقلاً بين المشاهد

اليومية والأحداث الكبرى التي شهدتها الجزائر. وتتراوح المواضيع التي يستعرضها في سيرته الذاتية بين الحياة الإجتماعية والسياسة والثقافية، ويحاول أن يعكس تجربته الشخصية من خلال التحليل العميق لظواهر إجتماعية في سيرته، وقد جاء النص زاخرًا ومتنوعاً بشتى التقاليد، ومختلف العادات والأعراف.

ومن ذلك تصويره لكيفية غرس النخيل في واد سوف وهو جزء لا يتجزأ من الثقافة والتقاليد في تلك المناطق فالتمر يغدو هناك مصدرًا رئيساً للغذاء، كما أنَّه على المستوى الإقتصادي تعد زراعة النخيل وتجارة التمور مصدرًا رئيسياً لدخل الكثير من الأسر، حيث يعمل العديد من الأفراد في مجالات مثل زراعة النخيل، وتجميع التمور وتصديرها يقول: «التمر هو المادة الأساسية فالذي لا نخل له لا حرمة له، والذي له نخلات يعيش منها بنفسه وأولاده لا يعرف الفقر ويظل مستورًا بين الناس»[1]

ولأنَّه يدرك تماماً أهمية هذا الإرث الغذائي المحلي ودوره في التعريف بالمنطقة وثقافتها، لم يتأخر في مشاركتنا قائمة ببعض الأطباق التي نجد أنَّها تعكس طبيعة البيئة وتعبر بشكل فريد عن قدرة المجتمع على التكيف مع تحديات البيئة القاسية والاستفادة من مواردها الطبيعية المحدودة ببراعة، إذ إن «معظم المأكولات من الإنتاج المحلي ما عدا القمح والدقيق والشحم والزيت»[2] ومن الأطباق التي ذكرها الكاتب: الكسكسي، الكسرة المطبقة (وهي نوع من الفطائر المحشوة بالخضر والتوابل)، الجاري، الحساء، الشربة، الرغيدة، الدوبارة وغيرها.

إنَّ تلك الأطباق ليست مجرد وجبات عادية، بل هي تجسيد لروح الصحراء وقدرة المجتمع على التدبير في بيئة تتسم بالتحديات، كما تعكس قدرة الإنسان على التكيف مع البيئة والاستفادة الأمثل من الموارد المحدودة المتاحة، بالإضافة إلى أن الأطباق المذكورة تعكس ثقافة المجتمع، في إضافة فنية إبداعية تعبر عن التعدد وتنوع العادات والتقاليد.

كما ينقل لنا الكاتب أيضاً صورة عن طبيعة الملابس التي كان يرتديها الرجال والنساء والأطفال ومناسبة كل بدلة فيقدم لنا فكرة عن اللباس الرجالي أولاً والتي كانت عبارة عن قندورة بسيطة لا تقي من الحر ولا من البرد يزاد عليها البرنوس في حالات الإنتقال والذهاب للسوق «ومن لوازم لباس الرأس عند الرجال هو لباس شاش (العمامة) من الصوف لأنَّه مرفوض إجتماعياً ظهور الرجل حاسر الرأس»[3] كما فصل في اللِّباس الذي ترتديه

(1) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص45.
(2) المصدر نفسه، ص46.
(3) المصدر نفسه، ص35.

المرأة إذ هناك الحولي والروبا وهما من الصوف تلبسهما المرأة في الشتاء، أما غطاء الرأس فهو الطرف والشنبير وهما كذلك من الصوف بالإضافة إلى قطاية مضفورة من خيوط بألوان العلم الوطني، كما تضع الكتافية وتسدل على الكتفين أما صيفاً فترتدي المرأة الملحفة وتكتفي بوضع الطرف على رأسها، أما الحذاء فهو العفان. [1]

ويطلعنا الكاتب على أنَّ هذه الألبسة لم تكن قي متناول الجميع إلاَّ في القليل النادر، على أن هذه الملابس يتم استغلالها مرات عديدة «فالعائلة تتبادل الملابس إلى تفنى أو تصبح مرقعة بالية وحتى في هذه الحالة فإنَّ بقايا الملابس التي يطلق عليه إسم الفشاشير، لا ترمى ولكنها تُمزقُ قطعاً ويصنع منها سدادات سواقي وأحواض الماء أثناء سقي»[2].

لقد عبرت الملابس عن أوضاع المجتمع وظروفه الحياتية، والإقتصادية، فيروي لنا الكاتب من خلال الثياب البالية والمهترئة قصة الصعوبات التي واجهها النَّاس في تلك الحقبة الزمنية التي شكلت فيها الحاجة والشدائد جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس. وقد تتراكب الألوان والتفاصيل الموجودة على الملابس لتنسج لنا قصة مجتمعية مميزة فتعبر لنا عن التقاليد والثقافة المتعارف عليها في ذلك الوقت.

ومن العادات التي نقلها لنا ما كانت تقوم به الأم في الدار عند ختان أحد أبنائها «فإنَّها تعلن ذلك بتعليق الراية على أعلى مكان في المنزل بعد صبغها بالزعفران وتخضيب يد الطفل اليمنى بالحناء وجعلها عقدًا من الصرائر المحشوة بالبخور المنقوعة في الحناء والزعفران والمعقودة بخيطين أحدهما أخضر والآخر أحمر»[3]

ومن العادات عند أهالي قمار أيضاً مايعرف "بالتعرزين" وهي من العادات المتصلة بالشباب، وهي لقاء بعض الفتيات والفتيات في الطرقات والمساحات العامة وتتم طريقة التعارف على النحو التالي: يتقدم الفتى من الفتاة ويكلمها عن بعد بلطف وأدب، فإذا لم ترد عليه تركها وشأنها وإذا كلمته يعد دليلاً على موافقتها وقد يقترب منها الشاب ويكسر أسبولة على رأسها وقد يكون هذا الحديث، هو فاتحة الحديث فالزواج والتغزرين هو نوع من أنواع التعارف والخطبة المبدئية، وهكذا يقدم لنا الكاتب لوحة أنتروبولوجية عن طقوس الزواج واختيار الشريك في بيئة محافظة.

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص36، 37.
(2) المصدر نفسه، ص 36.
(3) المصدر نفسه، ص39.

وفي معرض آخر من فصول السيرة، يشير الراوي لطريقة العلاج والتداوي والتي تكون طبيعية وشعبية ويقول في هذا الصدد «ولعل الذين أعرفهم جميعاً لايؤمنون بالطب ولا يعترفون بطبيب. ولو عرض الأمر حتى على عرفاء العامة لوجدوا له علاجاً شعبيا»[1] ممّا يبين سيطرة الطب الشعبي والنفور من الطب الحديث واللجوء إلى بركات الأولياء الصالحين.

وينقل لنا الراوي مشهدًا، لم يكن مقتصرًا على تلك المنطقة فحسب بل تعرفه جميع المناطق الجزائرية التي ينعدم الطب، فقد تعرض في حادث شخصي إلى كسر يده إثر سقوطه في البئر فحاولت زوجة عمه أن ترد يده إلى طبيعتها من خلال التكميد والجذب بالزيت الساخن[2] إلاَّ أنَ هذه المحاولة كانت فاشلة وظلت يده معوجة لم يُجبَر كسرها ليخوض رحلة عند الكوايين المشهورين هناك يقول واصفا ذلك: «أحمى أدواته الحديدية حتى صارت حمراء لاهبة ثم طلب مني أن أدير وجهي حتى لا أرى يدي وهي تشوى. فأدرت وجهي وأمسك أبي بيدي وأخذ محمد الدائرة ينقر يدي باللهب نقرًا خفيفاً على جانبي الرسغ ويقلبها»[3] على أن هذه الرحلة العلاجية الشاقة لم تفلح وظلت على حالها بغياب الطب الحديث والأشعة. ومن الأمثلة في هذا المجال: علاجه لداء "الصفير" أو "اليرقان" من قبل أحد العرفاء والذي كانت له طقوسه الخاصة في العلاج إذ «أعد قصبة يابسة وأشعل طرفها ثم كواه بها في مفاصل يده الإثنتين، حول الرسغ وكية أخرى وراء العنق في آخر فقرة من العمود الفقري ثم أحضر سعفة خضراء ثم أمره ألا ينزعها حتى تيبس وتسقط وحدها»[4] وتلك هي علامة الشفاء وقد نجحت هاته الطريقة وشفي من داء الصفير والذي يعد من الأمراض الخطيرة ولا ندري أكان شفاؤه محض صدفة أم إن بركة ذلك الشيخ صاحب السر كان السبب في شفائه.

ونتبين من خلال هذا أن مظاهر العلاج لدى المجتمع السوفي بشكل خاص والجزائر بصفة عامة لم تتعد إطار العلاجات الشعبية، وهذا يحيل إلى ندرة الأطباء ويدل على تمسك هذه المجتمعات بالطرق التقليدية المتوارثة.

ومن العادات ماكانت تقوم به الأم والأخت الكبيرة قبيل السفر إذ تمشي خلفه لتحمل من أثر قدمه حفنةً من تراب وترجع بها إلى الحوش على أمل الرجوع إليه بعد حين[5]. هي من العادات والتقاليد التي لازالت مستمرة

(1) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص92.
(2) ينظر: المصدر نفسه، ص52.
(3) المصدر نفسه، ص 53.
(4) المصدر نفسه، ص93.
(5) ينظر، المصدر نفسه، ص130.

إلى يومنا هذا رغم تفاوتها واختلافها، ففي بعض المناطق الجزائرية لاتزال العائلات ترش المسافر بالماء والماح حتى لا يصاب بالعين ويعود سالماً غانماً.

وخلاصة القول في هذا الباب، أن سيرة أبي القاسم سعد الله تنسجم برقة وتوازن، وتتجاوز حدود الوصف العادي للواقع الإجتماعي والثقافي الذي عاش فيه، إنَّها نقشت متقنة للمجتمع وأوجهه المتعددة، حيث ترصد الحياة الإجتماعية بدقة وواقعية كأنَّها لوحة فنية تعكس تفاصيل أفراحهم وأتراحهم. فتكشف لنا بذلك عالماً غنياً بالعادات والتقاليد التي امتزجت فيها عاداته اليومية بتلك المجتمعية.

إنَّ هذه السيرة الذاتية الإستثنائية لوحة تاريخية تحمل بين طياتها حكاية حياة إنسان ومجتمع وتقدم لنا رؤية شاملة وعميقة للحضارة والثقافة المجتمعية آنذاك.

- **ثامناً:الفضاء المكاني (دراسة فنية):**

يعد المكان ضرورة حتمية في السير الذاتية، كون الأحداث تسير في فضاء مكاني معلوم، والمكان يلعب دورًا أساسياً وفعالاً في هذا النوع من الكتابات الأدبية إذ إنَّه يساهم في بناء السيرة وتشكيلها ورسم أبعادها ويمكن من خلاله كذلك أن نكشف عن الأبعاد الإجتماعية والنفسية للشخصيات والمكان «لا يوجد إلاَّ من خلال اللغة فهو بذلك فضاء لفظي Espace verbal بامتياز ويختلف عن الفضاءات الخاصة يالسينما والمسرح، أي عن كل الأماكن التي ندركها بالبصر أو السمع، إنَّهُ فضاء لا يوجد من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب».[1]

إنَ الفضاء المكاني يسمح لنا بفهم الشخصيات من خلال رسمه وإعطائه نظرة عن الوضع الإجتماعي والإقتصادي والفكري والسياسي والثقافي للمنطقة فالإنسان غالباً يتشرب صفات مجتمعه فهو ابن بيئته ومتصل بالمكان الذي يؤدي دورًا مهماً في تكوينه بالإضاف إلى أن كل مكان له خصوصيته وجماليته وتأثيره على الشخص. والمكان عنصرٌ محركٌ وأداة فنية ناجحة تؤثر في نمو الأحداث وتطورها، وتحرك من خلاله الشخصيات فهو يعتبر همزة الوصل التي تربط بين الشخصيات والزمن والأحداث بإعتباره عنصرًا فعالاً في تنظيم الأحداث...وكذلك بفضل العلاقات التي يقسمها مع الشخصيات والأزمنة[2] فالأحداث دائماً تحدث داخل إطار مكاني معلوم ومحدد.

(1) حسين بحراوي: بنية الشكل الروائي، (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2009، ص27.
(2) ينظر: المرجع نفسه، ص20.

المكان «يساعد على التفكير والتركيز والإدراك العقلي للأشياء والبيئة التي تنتظم مع الأحداث والشخصيات في وحدة فنية متكاملة»[1]

لقد جاءت السيرة الذاتية "حياتي" زاخرة بالأماكن المتعددة والمختلفة إذ امتازت شخصية أبي القاسم سعد الله بكثرة السفر والترحال بين أماكن مختلفة، فكانت الأمكنة متنوعة؛ استهلها ببلدة "قمار" التي يصفها بقولها «ضاقت نفوس أهلي من سكنى الجانب الشرقي من بلدة قمار حيث الأزقة الضيقة والمتعرجة وحيث العائلات متزاحمة يراقب بعضها بعضاً، وحيث القرب من السوق الأسبوعي للبلدة الذي يجعلهم يشاهدون الغرباء ويسمعون الأصوات الناشزة والغريبة. كما ضاقت نفوسهم من شرب الماء المالح وتناوله في طعامهم ومغاسلهم»[2].

وقد مثلت هذه البلدة مصدر إزعاج له ولعائلته مما جعلهم ينتقلون منها إلى "البدوع" وعن تسميتها يقول: «وهذا الإسم نفسه جميل لأنَّه يوحي بالحرية والإبداع»[3] ولهذا المكان الأثر الكبير على أبي القاسم سعد الله، إذ تمثل مكان النشأة وله فيه الكثير من الذكريات مع عائلته وإخوته ويصفه بقوله: البدوع عبارة عن مساحات شاسعة غارقة في الرمال البيضاء المتحركة والكثبان الرملية العالية. وليس هناك طريق معبدة تؤدي إليها وليس فيها جامع ولا سكان دائمون، ...ولولا ماء البدوع الطيب، وظلال نخلاتها الوارفة وطيب هوائها، ما كان للعيش هناك من معنى، بل ربما كان عيشاً لا يطاق[4]، أما فيما يخص البيت الذي يعيش فيه رفقة عائلته فهو لم يصفه إلاَّ في قوله: «وحياتنا كلها جماعية تقريباً ،فالحوش يجمع الجميع من أب وأبناء وزوجة...وعندما كبرت العائلة بزواج كبار الأبناء بقيت العائلة أيضاً واحدة وإنَّما زيد في المباني والغرف حتى تستوعب النساء والأطفال الجدد»[5] ويمكننا أن نلمس مظاهر الحياة الجماعية وشيئاً من الحميمية والدفء الذي ينبع من التقارب الذي يخلقه البيت بين أفراد العائلة، فهم يجتمعون أغلب الأوقات في "الحوش" عند الأكل والحديث، والنوم، ويشتركون في السراء والضراء لذلك فالدار توطد العلاقة بين الأهل لتكسب بذلك معاني الألفة والحماية والسكينة في ظل الظروف الصعبة.

ويتدرج الكاتب في تنقلاته عبر المكان ليصل إلى الصحراء والتي حرص على ذكر أوصافها من أجل تمييزها عن بعضها؛ إذ يقول: "سكان واحات سوف يُعتبرون بالمفهوم المعاشي حَضريين، فهم يقطنون المنازل ذات

(1) أحمد طالب: جماليات المكان في القصة القصيرة الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005، ص19.
(2) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص07.
(3) المصدر نفسه، ص07.
(4) ينظر: المصدر نفسه، ص08، 09.
(5) المصدر نفسه، ص45.

القباب والأقواس الواسعة والأحواش والغُرف ...والصحراء تصبح في هذه الحالة هي المراعي والمساحات الشاسعة حيث ترعى الإبل وتعيش قطعان الماشية ويسكن النَّاس الخيام بدل الأحواش المبنية بالجبس والحجارة» .[1]

كما جاء ذكر مركز الآباء البيض (وهي مؤسسة لدراسة اللغة الفرنسية بتونس، سجل بها أبو القاسم سعد أثناء مكوثه هناك)، ويعكس هذا إهتمام أبي القاسم سعد الله الشخصي وجهوده في تعلم اللغة الفرنسية وتحسين مهاراته فيها، كما تدل على رغبته في التواصل مع الثقافة الفرنسية والاستفادة منها في تحقيق أهدافه الشخصية والمهنية.

كما يذكر أماكن الدراسة، وأولها "الجامع القبلي" الذي تحدث عنه قائلاً: في البدوع جامعان قبلي وظهراوي...وقد قرأت في القبلي منهما وهو القريب من منزلنا...والثابث أن الجامع القبلي بني سنة 1934 كما يشير التاريخ المنقوش على بابه[2] وقد مثل الجامع مركز إشعاع فكري وديني، ففيه يُحفَظُ القرآن وتقدم الدروس وعلم الدين، فمثل هذه الأماكن والفضاءات، كفيلة بتنشئة الفرد تنشئة قوامها العلم والصلاح.

كما ذكر الكاتب أماكن أخرى ومنها:

- **السوق:**

يذكر الكاتب أن يوم السوق هو يوم الجمعة وأن والده هو من يذهب للتسوق، وأنَّهُ لا يذهب إليه إلاَّ أحياناً بمرافقته. ويجد الفرصة مناسبة ليرسم لنا صورة عنها فالأسواق تتميز بشكل عام بتواجد التجار الكبار والصغار الذين يعرضون سلعهم من مواد غذائية، وبضائع شعبية، ولوازم منزلية، وهكذا يتجمع النَّاس في هذه الأسواق بكل انفتاح ويمتزجون معاً من مختلف الفئات العمرية والإختصاصات المهنية والحرفية المختلفو في جو مليئ بالحيوية والحركة كما يشكل تبادل الأخبار والأحاديث اليومية جزءًا لا يتجزأ من هذه التجربة السوقية ويقول في هذا الصدد: «لكن للسوق فوائد أخرى غير البيع والشراء، فالوالد كان يجتمع بعديله الشيخ محمد الطاهر التليلي ورغم الفرق بينهما في التكوين والثقافة، فالوالد فلاح ريفي والشيخ متعلم زيتوني وابن بلد...وكان أحياناً يأخذني معه وكان حديثهما عادةً حول المسائل الفقهية وأحياناً يكون عني وعن مستقبلي» .[3]

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص55.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص64.

(3) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص47.

وما يميز الأسواق أكثر هو دورها في خلق تجارب إجتماعية جديدة فكونها مكاناً لإلتقاء الأفراد وتعارفهم، يُمكِن الأشخاص من استكشاف وجوه جديدة وثقافات مختلفة، ويسرد لنا أبو القاسم سعد الله في مقطع آخر تجربته الأولى والشخصية في السوق كتاجر (بائع): «فأجلسوني امام دكان لأخوالي ووضعوا البضاعة أمامي ومعها الميزان التقليدي. وكان عليَ أن أجيب على أسئلة السائلين عن الأسعار وأن أزن لهم مايطلبونه بسرعة ونشاط وهمة وأن أكون حارًا كالفلفل الذي أبيعه حسب تعبيرهم...وكانت معظم الحركة الشرائية تجري عقب صلاة الجمعة...فكانوا يتكاثرون علي ويكثرون من اللّغط والتزاحم والكلام والتعليق فلم أستطع أن أكون تاجرًا ناجحاً» [1].

_تونس:

إنَّ حب أبي القاسم سعد الله للعلم والمعرفة، ورغبته في التعلم ونيل المراتب العليا دفعاهُ للتغرب في سن صغيرة إذ إنَّه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وعن هذه الرحلة يقول: «وبدأ الإستعداد الحقيقي هذه المرة للسفر إلى تونس...الإستعداد النفسي بالتفكير في مستقبلي العلمي بالمثابرة على حفظ المتون والقراء العامة حسب مانصحني به الطلبة الذين سبقوني إلى الزيتونة»[2] هذا فيما يخص الجانب النفسي من الرحلة إذ إنَّ هناك جانباً آخر يتمثل في شكل الطالب الزيتوني وهندامه يتمثل في حلاقة شعر الرأس ماعدا مقدمته ولبس الشاشية وإنتعال الحذاء لأوَّل مرة في حياته. وصف لنا الكاتب طول المسافة الفاصلة بين تونس ومدينة الوادي وإزعاج العساكر الفرنسيين للركاب بالتفتيش والملاحقة والمساءلة، واقفاً بنا على رحلة شاقة في سبيل طلب العلم حيث يقول: «لقد انحشرت في السيارة التي سارت بنا جنح الظلام، ولا أدري هل نمت أو تألمت أو فرحت أثناء هذه الرحلة الخطرة. لقد كنت فقط أتبع مصيري بدون أي احتجاج»[3] ، فتونس كانت تعني لأبي القاسم المكان الأثير الذي يرضي فضوله إلى الإستزادة المعرفية وطلب العلم. ومن الأماكن المهمة التي ارتادها في تونس:

_ وكالة سوق اللفة:

وهو أوَّل مكان قصده بعد توجهه لتونس إذ كان من المقرر نزوله فيه ويصف ذلك المكان بقوله: فيه طابقان الأول يستعمله التجار المجاورون للوكالة الذين يحتاجون بيوتاً لتخزين بضائعهم قريباً منهم...أما الطابق الثاني للوكالة فقد

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص67.
(2) المصدر نفسه، ص68.
(3) المصدر نفسه، ص76.

كانت فيه غرف للنوم، وكانت بيوت الخلاء مشتركة وبعض البيوت كانت كبيرة بحيث تؤوي اثنين أو أكثر، وبعضها كانت فردية ضيقة، وكل طالب يستطيع الطبخ إذا أرادو ذلك وبإحضار كانون وإيقاد النار في الفحم.[1]

إنَّ الإنتقال إلى هذا المكان، أكسب "أبا القاسم سعد الله" تجربة جديدة في حياته، إذ تعد الأولى له خارج مدينة الوادي، فقد أتاحت له هذه الخطوة الإستثنائية لتجربة جديدة في حياته فبضلها احتك مع طلبة آخرين وتعلم كتابت الرسائل.

_مدرسة جامع صاحب الطابع:

بعد انتقاله من وكالة سوق اللَّفة توجه إلى مدرسة صاحب الطابع كما هو مرتب له، والمدرسة ملك لوزير تونسي إسمه يوسف معروف بأعماله الخيرية «وكان الموصون قد رتبوا لنا الإقامة في مدرسة جامع صاحب الطابع نفسه، وأسكنونا في غرفة ذات ثلاثة أسرة من حديد. وكانت الأرض كلها من البلاط. ورغم وجود الكهرباء فإنَّ الغرفة كانت رطبة ولا تدخلها الشمس.»[(2)] هذا فيما يتعلق بالمسكن أما مكان التعلم فقد كان إستراتيجياً ومهماً إذ «يقع جامع صاحب الطابع على إرتفاع متميز، وهو مُضاء بالمصابيح الكهربائية ومزين بالثريات وقناديل الزيت القديمة ويدخله الهواء النقي من عدة أبواب ونوافذ، وله صحن واسع مطل بعضه على ساحة الحلفاوين».[(3)]

وبمسؤولية كبيرة، يخوض كاتبا تحولاً إلى هذا المكان بهدف التعلم مدركاً تماماً العبء المادي الذي يترتب عليه، إن هذا القرار يعكس تصميمه الحثيث على تحقيق التطور الشخصي والثقة فب النفس حيث يبذل قصارى جهده لتةفير الموارد المالية المطلوبة لهذه الرحلة التعليمية، يقول في هذا الصدد « الطعام كان من ريع أوقاف الجامع أو من أهل الخير. لقد كان الطعام كافٍ ولكنَّهُ كان يسد الرمق ويلبي الضرورة ولذلك كان بعض الطلبة يكملون غذاءهم من خارج المدرسة بنقود يرسلها إليهم أهلهم إن كانت لهم إمكانيات، وقد كنت أكتفي بما تقدمه المدرس معتبرًا إياه نعمة من الله أنعمها علي بعد المعاناة قمار كنت أشفق على والدي فلا أحيره بطلباتي وشكواي».[(4)]

_ جامع القصر:

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص77.

(2) المصدر نفسه، ص81.

(3)المصدر نفسه، ص87.

(4) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص81.

أمعن الكاتب في وصف الجامع ونرجح السبب في ذلك لطول مكوثه فيه إذ بقي فيه ستَّ سنوات إلى حين تخرجه مما سمح له بحفظ تفاصيله، وهو ليس فرعاً لجامع الزيتونة ولا علاقة له بنظام التعليم « وكان الجامع نفسه يقع في مستوى أخفض من مستوى الشارع فأنت تنزل إليه بدرجات قبل أن تدخل صحنه وميضته ثم تنزل درجات أخرى لتصل إلى المحراب نفسه. أما الغرفة التي نسكنها فكانت في صحن الجامع، ولذلك فإن الشمس لا تدخلها أبدًا لأنَّ سقف الجامع يحجبها عنها، أما الهواء فيدخلها قليلاً من نافذة صغيرة تطل على الصحن. وفي الغرفة سدة خشبية للنوم نصعدها برجات أيضاً وكانت السدة مفروشة بالحصير».[1] هذا بشكل عام فقد دقق أبو القاسم سعد الله في الوصف حتى إنَّه ذكر الجهة التي ينام فيها والمساحة بين السدة والباب، وقد فرض هذا المكان عليه تأدية الصلوات في وقتها وبالتالي الإنضباط الروحي والديني والإنتماء الإجتماعي والثقافي، من خلال إجتماع المسلمين لأداء الصلوات فتتوفر بذلك بيئة للتبادل المعرفي الديني ما يسمح بالإندماج وتعميق الراوبط الدينية.

_الجامع الحفصي:

أشار سعد إلى دور الجامع الحفصي في تشكيل شخصيته الفكرية والثقافية. وقد ورد في سيرته بأنَّه كان يحظى بفرصة تعليمية رائعة في هذا المكان، إستطاع خلالها توسيع مداركه الثقافية وتطوير فكره الأدبي إذ سنحت له فرص التعلم والتواصل مع شيوخ الجامع والعلماء المرموقين يقول في هذا الصدد « وكانت نفسي قد طابت فيه لأخذ العلم وبدأت تنفتح لي فيه مجالات وإشراقات المستقبل، على يد مجموعة من الشيوخ الذين أذكرهم اليوم إلاَّ بالإحترام وبطلب الرحمة والغفران».[2]

_مدرسة ابن عبد الله:

وتعد هذه المدرسة بداية مرحلة تعليمية جديدة لأبي القاسم سعد الله إذ أنَّها كانت بداية لما يعرف بوقمنا الحالي "بمرحلة الثانوي"، إضافةً إلى ذلك فقد اختلفت هيكلة الأقسام عن السابق وصارت عصرية البناء مجهزة بطاولات وكراسي وسبورات.

(1) المصدر نفسه، ص101.

(2) المصدر نفسه، 105.

_الجامع الأعظم:

يصف فترة دراسته فيه بقوله: «سنتان في الجامع الأعظم دارساً فيه، غادياً إليه رائحاً منه، جعلتني جزءًا من بيئته»[1] فالإلتحاق بالجامع والبقاء فيه لمدة سنتين جعلته ينغمس في هذه البيئة حتى صار جزءًا منها. (والجدير بالذكر أنَّه أنهى تعليمه الثانوي به ونال على شهادة التحصيل).

_عاصمة الجزائر:

لقد فرض الوضع الإجتماعي وظروف بيئة الكاتب ضرورة السفر بحثاً عن مصادر العيش التي تضمن الحياة الكريمة، ليتجه نحو العاصمة الجزائرية من أجل العمل ليعيش أول صدمة حضارية إذ لاحظ الفرق الشاسع بين الجزائر وتونس في النظام والأخلاق والنظافة والتعامل فيقدم وصفاً للباعة المتجولين «كان هؤلاء ذوي وجوه متجهمة ومعظمهم باللباس الأوروبي القديم. كاموا يحملون على أكتافهم وأذرعهم بضاعتهم من الملابس الشتوية المفصلة. وهم ينادون عليها بأصوات مرتفعة فهم لا يصيحون أو يترنمون بها كما يفعل الباعة في تونس ومصر وإنَّما ينطقون بها نطقاً خشناً وحادًا وكأنَّه قعقعة انفجارات. أين منها أصوات التونسيين الناعمة والمنغمة الواضحة والتلقائية»[2]. الإنتقال إلى العاصمة من أجل العمل أكسب أبا القاسم سعد الله تجربة جديدة في حياته جعلته يحتك ببعض المدراء والمعلمين والأشخاص الجدد.

_حمام الحراش:

يصف ذلك المكان بقوله: «كانت الغرفة على سطح الحمام وبجوارها غرف أخرى يسكنها بعض المتسكعين والهاربين من الشرطة. وليس لنا أية وسيلة للتدفئة، وإذا نزل المطر فإنَّه يدخل عندنا من تحت الباب ويمتد إلى أرجلنا، وكان فراشنا بسيطاً وموضوعاً مباشرةً، فكنا نقوم في الليل أحياناً لنجفف ماء المطر الهاجم علينا ونحاول سد المنافذ حتى لا يكرر علينا الهجوم من جديد»[3].

يعكس المكان الحياة المريرة والظروف الإقتصادية السيئة، حيث تنعدم أدنى ظروف الحياة الكريمة، على أن ذلك لم يفتّ في عضد أبي القاسم ولم يثنه عن بلوغ مرامه.

(1) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص167.
(2) المصدر نفسه، ص182.
(3) أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص187.

_مدرسة الثباث:

هي أول مدرسة يشاغل بعا إلا لأنَّه لم يطل البقاء فيها إذ أنَّه انتقل فيها بعد إلى مدرسة أخرى

_مدرسة التهذيب:

وهي المدرسة التي إنتقل إليها أبو القاسم سعد الله، ظروف العمل فيها أحسن فالمدرسة كانت مثالية من حيث التنظيم والنظافة والإنظباط وقد استفاد سعد الله من تجربته هناك إذ يقول في هذا الصدد

«كما استفدت أثناء وجودي في مدرسة التهذيب من طريقة إعداد الدروس وإشراك التلاميذ وإبتكار أساليب الترغيب في التعليم وهو أمر لم نتعلمه سابقاً»[1] وهنا يظهر الفرق بين المدرستين فمدرسة التهذيب تمتاز بالتنظيم والتسيير الجيد بالإضافة إلى توفير السكن اللائق للمدرس.

_القاهرة:

توجه سعد الله إلى "القاهرة" للدراسة وقد تأخر في التسجيل بالجامعات المصرية، مااضطره بالسكن لدى الشيخ الإبراهيمي مدةً قصيرة، لينتقل فيما بعد للسكن مع أحد طلبة الشيخ في غرفة لا تختلف عن سابقاتها مما عهده من فقر وبؤس، ويروي الفترة العصيبة التي مرت عليه «منحت الشيخ لم تأت إلاَّ في شهر مارس 1956 ولذلك عشت شتاء صعباً جدًا في القاهرة نفسياً وإجتماعياً ودراسياً»[2]. وتلك الفترة والظروف العصيبة لم تحد من عزمه وإرادته على النجاح بل جعلته أكثر نشاطاً وسعياً لذلك.

_أمريكا:

تمثل أمريكا الأماكن الخارجية التي زارها الكاتب وتتميز باتساع أحيائها وشوارعها، أما على صعيد العلاقات الإنسانية والإجتماعية، وسلوكات النَّاس في أمريكا فهي تختلف كا الإختلاف عن ماهي عليه في الجزائر وفي مصر ولبلاد التي عرفها من قبل.

(1) المصدر نفسه، ص194.
(2) المصدر نفسه، ص194.

بعد أن تمكن أبو القاسم سعد الله من زيارة والدراسة بمصر أتيحت له فرصة استكمال الدراسة بأمريكا سنة 1960 يقول: «وبينما أنا أجري امتحان معهد البحوث جاءتني برقية من تونس تقول: إذ عليك الحضور إلى تونس في شهر نوفمبر 1960 استعدادً للسفر إلى أمريكا»[1] وأول مازاره هو مدينة نيويورك التي كانت ممر عبور إلى مدينة واشنطن ليدرس في مركز اللغة الإنجليزية لينتقل فيما بعد للدراسة في جامعة منيسوتا.

_جامعة منيسوتا:

في هذه الجامعة تَحَصَلَ على المجاستير وناقش أطروحة الدوكتراه في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر (1965_1967) فكانت المكان الذي بلغ فيه هدفه المنشود ويعلق على ذلك بقوله: «وهكذا وصلت إلى مفترق طرق صعب في حياتي. فقد كان نيل أعلى درجة علمية هدفاً رئيسياً لي وهاهو قد تحقق»[2].

وبحم خبرته الطويلة في أمريكا ومعرفته ومخالطته لأهلها، حيث تجول فيها وسافر في ولاياتها، ويذكر أنَّه أقام فيها حوالي الخمس سنوات، ويصور لنا الكاتب الأماكن التي زارها والآثار. وما أعجبه في الأمركيين هو حسن معاملتهم.

_فرنسا:

تعتبر فرنسا من البلدان الأوروبية التي تمكن سعد الله من زيارتها، وتعرف على بعض معالمها وآثارها، إذ قضى ما يقارب الخمسة شهور (من جوان إلى أكتوبر1967) بالعاصمة باريس، وقد اهتم بوصفها لكثرة تجوله في شوارعها إلاَّ أنه يصرح بأنَ «لهذه المدينة نكهتها الخاصة، من حركات أهلها وكلامهم، في لباسهم وطعامهم في معاملتهم للآخرين وشطارتهم»[3].

والكاتب يصور لنا حالته النفسية المحبطة والمنشغلة بالترجمة والتردد على المكتبة الوطنية، وقد سمحت له فترة بقائه في فرنسا من زيارة مدن أوروبية كألمانيا، النمسا، إيطاليا، سويسرا وقد تمكن الكاتب من خلال زيارته لتلك المدن الأوروبية من التعرف على بعض جوانب الحياة في الغرب.

(1)أبو القاسم سعد الله: حياتي ، ص253.
(2) المصدر نفسه، ص333.
(3) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص365.

إنَ تنقلات "أبو القاسم سعد الله" بين هذه الأماكن فرضتها ظروف الدراسة، فهي عاملٌ حاسمٌ في إثراء تجربته وتوسيع آفاقه الثقافية، بفضلها كان له أن تفاعل واتصل مع شخصيات وأجناس مختلفة، فامتلك القدرة على التعمق في تفاصيل طبائعهم وعاداتهم وأفكارهم المتنوعة.

وقد تجلت فوائد هذه الرحلات والتجارب في تطوره الشخصي وتنوع معارفه إذ إنَّه بات قادرًا على التفاعل والتعايش مع الثقافات المختلفة، واحترام تنوعها وتعدد بعدها العقلي والثقافي والإجتماعي، بالإضافة إلى منحه الرؤية الواسعة. ولذلك يشكل هذا الإنفتاح على مختلف الثقافات مصدرًا مهماً يمكنه من صناعة شخصية فذة معرفياً قادرة على التعاطي مع التحديات.

وفي ضوء ماسبق يمكننا القول إن للأمكنة المختلفة التي تم ذكرها دلالات ومعاني إجتماعية وثقافية اقتضتها المواقف والأحداث المختلفة.

تاسعاً: الفضاء الزماني (دراسة فنية):

يعد الزمان مكوناً أساسياً من مكونات السرد حيث يشكل «الإيقاع الذي يضبط أحداث الحياة والشاهد على مصير الشخصيات والعنصر الفعال الذي يغذي حركة الصراع»[1]، فالزمن إذن عامل محوري وعليه تترتب عناصر التشويق، والإيقاع والإستمرار كما أنه يشهد على مصير الشخصيات.

ويعرفه حسين بحراوي بقوله: «هو الخيط الرابط بين الأحداث المحكية في سيرورتها من ماضٍ لحاضر فمستقبل»[2]

ولا شك أنَّ زمن الأحداث في فن السيرة الذاتية يختلف عن زمن الكتابة «فزمن الأحداث هو الماضي الممتد في الزمان، ولذلك إذا أردنا في زمن المقام السردي فيمكن أن نلاحظ أن السارد (المؤلف) لا يمكنه أن يحكي ويروي إلا بواسطة زمنين هما الماضي أو الحاضر، وأن السرد لا يكون إلا لاحق للمقام ومتوافق معه، وهي ملاحظة عامة تهم كل الكتابات السردية التي من قبل السيرة الذاتية»[3]

(1) ضياء غني لفتة: البنية السردية في شعر الصعاليك، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010، ص86.

(2) حسين بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص118.

(3) محمد الباردي: عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2005، ص112.

والزمن يختلف من إنسان إلى آخر، ليس على مستوى عدد الساعات والأيام بل بما يخلف من أثر فينا فهو يعايش كل واحد منا ويترك عليه أثره الخاص به.

فتجربة "أبي القاسم سعد الله" السيرية قاسية، تصطبغ أهم فتراتها بالمعانا ومغالبة الواقع فهو لم يعرف طعم الراحة والإستقرار، وقد تحدث عما كان يلاقيه من عذاب وآلام الإغتراب مما يخلق بينه وبين قارئ سيرته جسرًا من المعايشة الوجدانية.

على أنَّ سيرته التي بين أيدينا لا تتضمن كل حياته، بل فترة محدودة من مسيرته تمتد حتى عودته إلى الجزائر سنة 1967، ولقد ضَمَنَ مابعد هذه الفترة في جزء آخر لم ينشر بعد. وقد اهتم كثيرًا بالزمن إذ كان دقيقاً في ذكره للأوقات، والأيام والسنة، إضافة إلى ذكره اليوم بوقته إن كلن صباحاً أو مساءً أو ليلاً.

مثلاً قوله: «ذات مساء من عام 1945 رجعت من الجامع بعد أداء النوبة النهارية الثانية.»[1]

أو في قوله: «كل هذه الأفكار دارت بخاطري وأنا أستعد لمغادرة واشنطن بعد قضاء بعد حوالي أربعة أشهر فيها من أول ديسمبر 1960 إلى 21 مارس 1961».[2]

كذلك في قوله: «إنَّه اليوم الثامن والعشرون من شهر نوفمبر 1960 كنا في رابعة النهار وكأننا عند الغسق»[3]

فنلاحظ هنا مدى دقة تحديده للوقت والتاريخ والذي ينم عن انظباطه واهتمامه بهاته التفصيلات، ولعل ذلك يعود إلى إهتمامه بتدوين الأحداث المهمة في حياته في مذكرة شخصية.

لقد اتسمت السيرة الذاتية لأبي القاسم سعد الله بالتسلسل الزمني في سرده للأحداث وهذا دليل على قوة ذاكرته، وأهمية هاته التواريخ وتأثيرها فيه، فكل حدث كان يحدد تاريخه، فجاءت بعض عناوين الفصول ومضامينها مُحددة بفترات زمنية، كما أن الأحداث المهمة العامة والخاصة في حياته قد ذُكِر تاريخها باليوم والشهر والسنة.

ففي عنوان الفصل الثاني "في تونس 1947_1954" يقول: «وصلت تونس ذات سوم من أواخر شهر سبتمبر أو أوائل أكتوبر سنة 1947»[1]، نلاحظ هنا أنه حدد الزمن بشكل دقيق إلى حد ما، فمن الصعب تذكر التاريخ البعيد بالتحديد إذ أن الذاكرة الإنسانية معرضة للنسيان وتداخل الصور والأحداث.

(1) أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص51.
(2) المصدر نفسه، ص 290.
(3) المصدر نفسه، ص، 263.

كذلك في الفصل الثالث تحت عنوان: "في القاهرة المعزية 1955_1960" حيث يقول: «غادرت ليبيا بالطائرة إلى القاهرة التي وصلتها ليلاً. وكان ذلك يوم جمعة _على ما أذكر_ في أكتوبر 1955»[2] ونلاحظ مدى الدق والتفصيل في ذكر اليوم والتاريخ والشهر والسنة.

يجد قارئ هذه السيرة أن زمن العمل السردي الذي بين أيدينا يطابق الأحداث والتواريخ التي عرفتها الجزائر إذ تقاطعت أحداث حياته مع بعض الأحداث العالمية والوطنية والتي دونها في سيرته ومن بينها يذكر: «سنة 1948 شهدت حدثاً جديدًا في السياسة بوادي سوف فلأول مرة خرج الوادي من المنطقة العسكرية وأصبح من حق أهله المشاركة في الإنتخابات وكان ذلك نتيجة قانون سنة 1947 المعروف بدستور الجزائر»[3].

وفي قوله أيضاً: «إن عشرين أوث (أغسطس) 1955 أصبح معروفاً في تاريخ الجزائر اليوم لأنّه (يوم المجاهد) تخليدًا للهجوم الكبير والجرئ الذي قام به جيش تحرير الجزائر في رابعة النهار. على مراكز تجمع الفرنسيين»[4]

وإذا ماعدنا إلى كتب التاريخ نجدها تتطابق تماماً مع ماذكره كاتبنا، إذ تعد هذه الأحداث التي ذكرها معلماً تاريخياً مهماً في التاريخ الوطني الجزائري، استطاع أن يستحضرها بحس المؤرخ.

ومن التقنيات الزمنية التي استخدمها الكاتب:

1. الاسترجاع:

لاشك في أنَّ السيرة الذاتية ترتكز على الذاكرة والإسترجاع كمادة حكائية، وتختلف مظاهر الإسترجاع باختلاف مضامين الأحداث المسترجعة فقد تكون للمعاناة والآلام التي قاساها مثل تذكره:

«ولا أذكر أنني لبست ثوباً جديدًا قط قبل سفري إلى تونس»[5]، وتذكره لإقتلاع ضرسه عند الحلاق، والأمراض التي مرت عليه وهو في الغربة إضافةً إلى الحاجة والفقر التي لازمته طوال مشواره التعليمي.

(1)أبو القاسم سعد الله: حياتي ، ص75.
(2) المصدر نفسه، ص221.
(3) المصدر نفسه، ص97.
(4) المصدر نفسه، ص20.
(5)أبو القاسم سعد الله: حياتي ، ص36.

أما الاسترجاعات السارة فهي مانجده في حكيه عن الوعدات رغم قلتها والإستمتاع بالخلوة لوحده بالإضافة إلى المطالعة والتعلم واللتان كانتا شغفه وجعلتا منه شخصاً متميزًا.

كما نلحظ استعمال "أبي القاسم سعد الله" للفعل الماضي في معظم سيرته وذلك لإسترجاع الزمن الماضي

وما مَرَّ به في حياته فالفعل الماضي الناقص "كان" له حضور كبير كقوله: «كان الإستيقاظ عادةً بين الثانية والثالثة صباحاً»[1] والحديث في هذا الصدد طويل، بالإضافة إلى ذلك ذكره التواريخ والأحداث بدقة في تدوينه لهاته المذكرات. والهدف من توظيف تقنية الإسترجاع عموماً هو إضفاء البعد الجمالي الفني على النص« استعمال الإستذكارات التي تأتي لتلبية بواعث جمالية ونية خالصة في النص»[2] كما يسهم أيضاً في سد الثغرات ويساعد القارئ على ربط وفهم الأحداث كما يساعد في رسم صورة واضحة وشاملة لمراحل الحياة المختلفة والتجارب المهمة التي مر بها الشخص وتوضيح ماضيه.

2. الاستباق:

لقد عَمَدَ الكاتب إلى توظيف بعض الإشارات الإستباقية، كشكل من أشكال خلخلة النظام التسلسلي كقوله عن الأمراض التي أصابته: «وعندما صرت طالباً في الولايات المتحدة كانوا يسألونني عن أمراضي القديمة ومنها الصفير...»[3].

وفي قوله أيضاً: «ومن غريب الصدف أن لزهاري نفسه سيكون زميلي في التعليم في مدرسة الحراس سنة 1954_1955»[4].

وهناك استباقات أخرى متعلقة بالوضع العام نحو قوله: «لكن بعد الإستقلال اختلفت الإهتمامات وتبدلت العملة وتوقف القطار»[5].

(1) المصدر نفسه، ص27.
(2) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص121.
(3) أبو القاسم سعد الله :حياتي، ص93.
(4)أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص111.
(5) المصدر نفسه: ص136.

وعليه نقول إن هذه الإشارات الإستباقية، ورغم قلتها في هذا النَّص السيري إلاَّ أنَّها اختصرت الزمن بشكل ما وأضفت طابعاً تكامليًّا عليه، كما أنَّها عملت على كسر وتيرة نظام الزمن السردي للأحداث حيث تتجاوز التسلسل المنطلق إلى المستقبل.

3. التتابع:

الزمن في سيرة "أبي القاسم سعد الله" الذاتية، هو زمن متصاعد التزم فيه بسرد الأحداث تبعاً لتسلسلها الزمني فالتتابع في الفصول كان على أساس التكامل لا التقابل، حيث ابتدأ سيرته منذ ولادته أي في حوالي سنة 1830 إلى غاية اشتغاله وإكماله لتعليمه سنة 1967 إذ أنَّه رتب سيرته ترتيباً تصاعدياً.

خاتمة

خاتمة:

في نهاية هذه المذكرة الموسومة بـ "**فن السيرة في الأدب الجزائري المعاصر حياتي لأبي القاسم سعد الله أنموذجاً**" يمكننا استنتاج عدة نقاط مهمة منها مايلي:

- ✓ يختلف الدارسون شرقاً وغرباً حول مفهوم واحد للسيرة الذاتية، إلاَّ أنهم يتفقون حول كونها ترجمة ذاتية لحياة المؤلف.
- ✓ السيرة فنٌ قديم وضاربٌ في أعماق الأدب العربي منذ القرون الأولى له، وتعد جزءًا أصيلا منه، حيث ازدهرت في فترات مختلفة وشملت مختلف الشخصيات البارزة والعظيمة في التاريخ العربي بدءًا من سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مرورًا بالصحابة والتابعين والعلماء والفلاسفة والأدباء والزعماء.
- ✓ استمدَّ فن السيرة في الأدب العربي القالب الفني من تأثره بنماذج فن السيرة في الأدب الغربي.
- ✓ يتضح أن السيرة الذاتية تتداخل مع مجموعة من الأجناس الأدبية حيث يصعب التمييز بينها كالإعترافات واليوميات والمذكرات وغيرها من الأنواع الأخرى.
- ✓ إن الدراسات في مجال أدب السيرة الذاتية في الجزائر قليلة بالمقارنة مع الأدب المشرقي. ورغم أن الأدب الجزائري المعاصر يحتوي على عدد من الأعمال السيرية المميزة فإنها لم تلقَ الإهتمام الكافي من حيث الدراسة والتحليل.
- ✓ نتبين أن فن السيرة يعد وسيلة مؤثرة لإستكشاف وفهم حياة الكتَّاب والشخصيات المؤثرة في المجتمع. وقد أظهرت هذه الدراسة أن أبا القاسم سعد الله يعتبر أحد رموز الأدب الجزائري المعاصر، يمتلك سيرة مليئة بالأحداث والتجارب التي تعكس رحلته الأدبية والفكرية.
- ✓ إن السيرة الذاتية لأبي القاسم سعد الله "حياتي" كانت بمثابة نافذة نطل من خلالها على كاتب كبير طوّع الظروف، وتجاوز المحن، ليذلل كل الصعاب بحبه للعلم والمعرفة، ورغبته الجامحة في بلوغ أسمى مراتبه.
- ✓ تعكس هذه السيرة التحولات الإجتماعية والسياسية والوطنية والثقافية التي شهدتها الجزائر وقد جاءت أحداث السيرة الذاتية متسلسلة ومستنبطة من الواقع، فقد صور صور الكاتب أهم الأحداث التي عاشتها الجزائر قبل الإستقلال وبعده.

- ✓ كان للزمن أهمية كبيرة في هذه السيرة، وشمل تقنيات كثيرة، ولأنها سيرة ذاتية فقد طغت تقنية الإسترجاع عليها حيث عوَّل فيها صاحبها على الذاكرة وما تختزنه من مشاهد وأحداث.
- ✓ شغف الكاتب بالترحال والتعلم، جعل سيرته حافلة بالأمكنة، وهي أمكنة واقعية وكان لوصف هذه الأماكن وذكر أسمائها الحقيقية دورٌ بارز في إيصال صدق السرد وإقناع القارئ، فوجود تفاصيل دقيقة عن الأماكن وتسمياتها الحقيقية يعطي النص مصداقية أكبر ويخلق رابطاً قويا بين الكاتب والقارئ، كما تعكس الأماكن الحياة الإجتماعية التي كان يعيشها أبو القاسم سعد الله.
- ✓ احتلت الشخصيات موقعاً متميزًا في سيرة أبي القاسم سعد الله، فكان هناك عدد هائل من الشخصيات الواقعية، التي أدت دورها الفعال في تسيير الأحداث.
- ✓ سيرة أبي القاسم سعد الله انتقائية اختار فيها بعض الجوانب من حياته مع غض الطرف عن أمور أخرى، كما أن سيرته لم تغطِ كل مسار حياته.

وفي الأخير يمكن القول بأن الدكتور "أبا القاسم سعد الله" اهتم بجميع العناصر السيرية من ميثاق وأحداث وصدق وموضوعية، ومكان وزمان، وقد سعى إلى رسمها وتوضيحها بلغة راقية وبأسلوب بسيط يسهل على القارئ فهمه واستيعابه. هذا ولم تزل سيرة أبي القاسم كتاباً مفتوحاً للدّارسين إذ يمكن مقاربة نصوصه من مستويات عدَّة، فهي معين للنقد الأدبي وللدراسات التاريخية معاً. والله من وراء القصد.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش.

المصادر:

- أبو القاسم سعد الله، حياتي مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2015.

المراجع:

المعاجم والقواميس:

- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ط1، د.ت.
- الفيروز آبادي: قاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1، 2002.
- المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2005.

الكتب العربية:

- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، د.ت.
- إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
- أحمد بن علي آل مريع، السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، تق محمد القاضي، صامد للنشر والتوزيع القيروان، تونس، ط3، 2010.
- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- أحمد طالب: جماليات المكان في القصة القصيرة الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005.
- بهيجة مصري إدلبي: السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط1، 2010.
- تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع الأردن، ط1، 2002.
- جليلة طريز: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، مؤسسة سعيدان للنشر والتوزيع، 2004.
- حسين بحراوي: بنية الشكل الروائي، (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2009.

- خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.
- الرحلة المغربية قضايا وظواهر، اعداد حشلافي لخضر، الرحلة المغربية وخصائصها الفنية والبلاغية، دار الضحى للنشر، الجلفة الجزائر، ط1 2017.
- شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، الوراق للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1، 2015.
- صالح معيض الغامدي: "كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2013.
- صدوق نور الدين، سير المفكرين الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.
- صلاح صالح: سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003.
- ضياء غني لفتة: البنية السردية في شعر الصعاليك، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010.
- عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الجيزة، مصر 1995.
- عمر بن قينة، الأدب العربي الحديث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان_الجزائر، ط1، 1999م.
- محمد الباردي: عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، اتحاد كتاب العرب، دمشق 2005.
- محمد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص السير ذاتي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1،2011.
- مراد وزناجي: حديث صريح مع أ.د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللّغة والتاريخ، منشورات الحبر الجزائر، ط2، 2010.
- يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

المراجع المترجمة:

- جورج ماي: السيرة الذاتية، تر محمد القاضي، عبد الله صولة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1 2017.
- رنيه وليك وأوستن وارن: نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، د.ط، 1992.

فيليب لوجون، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، تر عمر حبلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1994، ص08.

المراجع الأجنبية:

Dictionnaire français Arabe (Dictionnaire général, linguistique technique: et scientifique) par Bureau des études et recherches, dar Alkotob al ilmayh, beyrouth, Libon

Jacques Le carme, Eliome Lecarme tabone: L'autobiographie édition 2 :Armond calim

المجلات:

مجلة الصوتيات، جامعة البليدة، الجزائر، العدد 18، جانفي 2017.

مجلة اللغة و الإتصال، وهران، المجلد10، العدد 16، 2014.

مجلة المدونة، المجلد08، العدد01.

فهرس الموضوعات

الفهرس

شكر وتقدير.....

إهداء.....

مقدمة:.....أ

مدخل: مفاهيم نظرية في السيرة الذاتية.

أولاً: مفهوم السيرة عند العرب:..... 11

1_من الناحية اللغوية:.....11

2_بين الترجمة والسيرة:.....12

3_من الناحية الاصطلاحية:.....12

ثانياً: تعريف السيرة عند الغرب: 16

1_التعريف اللغوي: 16

2_التعريف الإصطلاحي: 17

ثالثاً: نشأة السيرة الذاتية: 19

1_ نشأتها عند العرب: 20

2_ نشأتها عند الغرب: 22

الفصل الأول: السيرة الذاتية وأشكالها في الأدب العربي الحديث والمعاصر

أولاً: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث والمعاصر:..... 27

ثانياً: أشكال السيرة الذاتية: 32

1_ اليوميات Journal intime:.....33

2_الإعترافات: Confessions.....35
3_المذكرات:Les mémoires.....36
4_أدب الرحلات: Littérature de voyag 39
ثالثاً: أنواع أخرى من السيرة الذاتية:
1_ السيرة الذاتية الشعرية: 41
2_ السيرة الذاتية الروائية:.....41
3_السيرة الذاتية النقدية: 41
4_السيرة الذاتية القصصية: 41
السيرة الذاتية في الأدب الجزائري:..... 42
بعض الأسماء الجزائرية وكتابتهم السيرية: 43
الفصل الثاني: دراسة تطبيقية في كتاب "حياتي" لأبي القاسم سعد الله
أولاً: الميثاق السير ذاتي: 49
1_العنوان:.....49
2_المقدمة:.....50
3_الملحق: 51
ثانياً: التطابق بين المؤلف والسارد وبطل السيرة: 52
ثالثاً: الشخصيات: 54
رابعاً: الأحداث:.....57
1_مرحلة الطفولة:.....58
2_أطوار التكوين العلمي: 59

أ_الدراسة في تونس: 60
ب_الدراسة في مصر: 62
ج_دراسته في أمريكا: 64
خامساً: دراسة للعنوان: 66
1_المستوى النحوي: 66
2_المستوى الدلالي والوظيفي: 67
سادساً: حدود الصدق والموضوعية: 69
سابعاً: صورة المجتمع في سيرة أبي القاسم سعد الله: 72
ثامناً: الفضاء المكاني: 76
تاسعاً: الفضاء الزماني: 85
1.الإسترجاع: 87
2. الإستباق: 88
3. التتابع: 89
خاتمة.....91
المصادر والمراجع: 93

الملخص:

جاءت هذه الرسالة بعنوان "فن السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر حياتي لأبي القاسم سعد الله أنموذجاً" وتضمنت مقدمة ومدخلاً وفصلين وخاتمة وتتناول هذه الدراسة فن السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر، بالتركيز على حياة الكاتب الجزائري أبي القاسم سعد الله كنموذج رائد.

ولقد حاولنا تسليط الضوء على أهمية السيرة الذاتية كوسيلة للتعبير عن الذات ومن ثم استعرضنا السيرة الذاتية للكاتب في كتابه المعنون "حياتي" الذي وقفنا فيه على تحليل التقنيات التي استخدمها للتعبير عن تجاربه الشخصية وآفاقه الفكرية.

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، حياتي، الميثاق، الصدق.

Summary:

This study, titled '' the art of autobiography in contemporary Algerian literature: '' my life'' by abi al-qasim saadallah as a model '' included an introduction, an overview, two chapters, and a conclusion. This study exploes the art of auto-biography in contemporary Algerian literature, with a specific focus on the life of Algerian writer Abi Al-Qasim Saadallah as a pioneering example.

The message highlights the significance of autobiographe as a means of self expression, specifically examining saadallah's autobiography titled '' my life''. The analysis delves into the technique employed by saadallah to express his personal expriences and intellectual perspectives.

Key terme: autobiography, my life, covenant,honestly.